

عصمة القرآن الكريم وجَهالات المبشّرين

د. إبراهيم عوض

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ محمد فريد - القاهرة

هاتف ٣٩٢٩١٩٢

م ٢٠٠٥

فى البدء كانت هذه الكلمة :

منذ أن جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوة الإسلام ، وهو
وقرآنه يتعرضان لهجوم شرى لا يرمى فى منطق ولا بواعثه إلا ولا
ذمة ، هجوم كله باطل : هجوم ينطلق تارة من الوثنية والقبلية ، وهو
هجوم القرشيين . وتارة يقوم على العصبية القومية الغبية والأنانية
الحاقدة الفتاكة ، وهو هجوم اليهود ، الذين لم يطبقوا أن يروا نبيا من
خارج بنى إسرائيل ، إذ كانوا يتوهمون أنهم أبناء الله ، وأن الله هو
إلههم وحدهم مهما كفروا ومهما اجترحوا من جرائم ، وأنه لن
يعذبهم إلا لأيام معدودة ، فهم شعب الله المختار ، وبقية الخلق
«أغيار» منحصرون لا قيمة لهم . وتارة يقوم على رفض التوحيد النقى
الذى لا يقر بوراثة البشرية لخطي أبيهم آدم وأمهم حواء حين نسيا
فأكلتا من الشجرة المحرمة فأهبطهما الله من الجنة ، ولا بما يترتب
على ذلك المبدل الظالم الغريب من أن الله سبحانه وتعالى قد أرسل ابنه
الوحيد بعد خطي آدم وحواء بأزمة متطاولة كى يفتدى البشر من هذا
الخطي (أو فلنقل كما يقولون : من هذه الخطيئة) ، وذلك بتأله وموته
على الصليب مما يعدّ صورة من صبور الوثنيات القديمة ، مع أن من
المستحيل أن يكون لله سبحانه ولد ، فالألوهية والتعدد نقيضان لا
يجتمعان فى العقل أساسا .

وإني كلما تأملت هذا الهجوم الحاقد على الرسول الأعظم لم أجد له سبيبا مقنعا : لا إنسانيا ولا أخلاقيا ولا عقيديا ولا ... ولا ... لقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى أنقى صور التوحيد ، وأكد أن رب الإسلام إله عادل رحيم تسبق رحمته غضبه ، ويجازى على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، على حين لا يجزى السيئة إلا بمثلها ، وكثيرا ما يقفرها ، إله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، إله لا يحاسب الأبناء بذنوب الآباء ، إله يأخذ الناس بنيانهم لا بمظاهر أعمالهم ، إله أقرب إلى عياده من حبل الوريد ، إله يريد لهؤلاء العباد أن يسعوا وراء العلم وأن يستزيدوا منه وأن يفتحوا عيونهم وقلوبهم لتأمل الكون وما فيه من جمال ، إله يحب العمل والإنتاج ويكره الثروة والكسل ، إله لا يفرق بين البشر على أساس عرقى أو قومى أو قبلى بل على أساس من إيمانهم وأعمالهم الصالحة ، فالبشر عنده سواسية ، إله مفتحة أبوابه ليل نهار للتوبة والحصول على الغفران دون وساطة من أحد أيا كان ودون أية تعقيدات أو إراقة دماء بشرية ، إله يحض على العفو والتسامح ما أمكن ، وإلا فليأخذ المظلوم حقه ممن ظلمه دون أى تشريب ، إله يحلّ الطيبات ويحرم الخبائث ... إلخ مما لو ذهبت أستقصيه ما انتهيت .

كذلك كان رسولنا الكريم هو الصورة المثلى للإنسانية صبورا

وتسامحاً ، وحنوًا على الضعف البشري ، ورغبةً في تحويل هذا الضعف إلى قوة ، وحضًا على تحصيل أسباب الحضارة من علم وعمل ونظام وخلقٍ طاهر وذوقٍ راقٍ ، وعدلاً في تطبيق القانون ، وتوازناً في النظر إلى الدنيا والآخرة ، والجسد والروح ، فالدنيا طيبة ما دامت من حلال ، والطعام والشراب والعطر والنساء ممن من الله على عباده ليستمتعوا بها ، ولكن بحقها وفي اعتدال ... وهلم جرا . ترى ما الذى فى هذا أو فى ذاك مما يمكن أن يكرهه عاقل سليم القلب مستقيم الضمير ؟ وهل بعد رفض الدين الذين جاء به محمد يستطيع أى إنسان عاقل سليم القلب مستقيم الضمير أن يجد ديناً يصلح لاعتناقه والعمل به ؟

وفى الفترة الأخيرة ازداد الهجوم على الإسلام ورسوله شراسةً ظناً من المهاجمين الحاقدين أن الفرصة سانحة لتوجيه ضربة قاضية إلى ذلك الدين فى ظل ضعف المسلمين وهوانهم وتخلفهم . والواقع أن هؤلاء الحاقدين واهمون ، فالإسلام ، وإن كان المتسبون إليه الآن ضعافاً أذلاء ، هو دين قوى عزيز كريم يستحيل القضاء عليه ، والأيام بيننا ! ولقد مرت على المسلمين أزمان كانوا أشد ضعفاً وهواناً مما هم الآن ، ولم يستطع أعداء الإسلام أن ينالوا من دين الله مثلاً ، بل إن جوهرته لترداد على الأيام ومعاودة الهجوم عليه تألقاً وجمالاً !

ومما ظهر فى الفترة الأخيرة من كتب تهاجم الإسلام كتاب تافه صدر فى النمسا سنة ١٩٩٤م بعنوان « هل القرآن معصوم ؟ » لشخص يتسمى باسم « عبد الله عبد الفادى » (أو بالأحرى : العبد الفاضى)^(١) واح يهاجم القرآن فى رعونة وجهل ، ويتهم لغته بالضعف والخطأ ، ويحاول أن ينال من الرسول الكريم ، الذى حتى لو صدقت كل افتراءات هذا الكاذب الأفاك هو وجميع المبشرين والمستشرقين عليه صلى الله عليه وسلم لكان مع ذلك أفضل من أنبيائهم جميعاً حسبما يصور كتابهم المقدس هؤلاء الأنبياء : فنوح يشرب الخمر حتى يسكر وينطرح على الأرض عريان السواة ثم يلعن حفيده كنعان لعناً شنيعاً لا شىء إلا لأن حاماً أباً كنعان هذا قد تصادف أن رآه على هذه الحال . وإبراهيم يتنازل عن زوجته لأبيمالك خوفاً منه قائلاً إنها أخته ، ولولا أن أبيمالك قد عرف حقيقة الأمر فى المنام لوقعت الواقعة . ولوط تسقيه ابنتاه خمرًا حتى يفقد وعيه ثم تنامان معه الواحدة بعد الأخرى لتجبلأ منه . وموسى يقتل المصرى عن عمد وسبق لإصرار وقسوة إجرامية أصيلة ، وحين يختاره الله

(١) أو « عبد الفاضى » بإضافة الموصوف إلى صفتة ، فهو عبد يتصرف تصرف العبيد الأدلاء لا السادة الكرام النبلاء ، وفاضى ليست له شغلة ولا مشغلة ، ومن لم يتناول على سيد الخلق وسيد هو ومن يمولونه ويحرضونه على هذه السفاهة !

رسولاً إلى فرعون يردّ عليه سبحانه في جلافة غريبة أغضبته سبحانه عليه . وهارون يصنع العجل الذهبي لبني إسرائيل ويبني له مذبحاً ويبارك عبادتهم له وطوافهم ورقصهم حوله عراً صاخبين . ودادو يرى امرأة قائده الحربى من فوق سطح قصره وهى تستحم عارية فى فناء بيتها المجاور فيُحضرها إليه ويغنى بها ثم يتخلص من زوجها بمؤامرة خسية لا يقدم عليها إلا القتلة المتوحشون كى يخلو له وجهها ، ثم يتزوجها ويتجب منها سليمان . وسليمان ينظم نشيدا غزليا شهوانيا يتفوق فيه على كل شعراء المجون يصف فيه سرّة الحبيبة وأنداءها وأفخاذها ، كما يفض الطرف عن عبادة زوجاته للأوثان فى بيته . وعيسى تُكَبّ امرأة على رجليه تبللها بالدموع وتمسحها بشعر رأسها وتقبل قدميه بقمها وتدهنها بالطيب فيقول لها : « مغفورة لك خطاياك » ، وتأتبه أمه وإخوته يريدون أن يقابلوه فيرفض قائلاً إن أمه وإخوته هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها ، مما لا يمكن أن يكون معناه إلا أنهم لم يكونوا من الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها . وفى مناسبة أخرى يأمر اثنين من تلاميذه أن يدخلوا إحدى القرى القريبة ويأتياه بجحش مربوط هناك دون استئذان من أصحابه ليركبه . وفى العشاء الأخير يمسك بكأس خمر ويقدمها لتلاميذه ليشرّبوا منها ، بل إنه فى أحد الأعراس التى دُعِيَ إليها قد حوّل نحو خمسة عشر متراً مكعباً من الماء إلى خمر ليشرّب المدعوون

ويسكروا ، وكان ذلك استجابة لطلب أمه . وقد عدّ كاتبُ إنجيل
يوحنا هذا العملَ أولى معجزاته عليه السلام ... وهكذا ، وهكذا مما
هو مذكور في كتب القوم ، وإن كنا نحن المسلمين لا نصدّق بشيء
منه . ترى ما دام الأمر كذلك فلم يكرهون محمدا صلى الله عليه
وسلم ، وهو لم يفعل ذلك ولا عُشره بل ولا واحداً على مائة أو على
ألف أو حتى على مليون منه ؟ الواقع أن القوم ، بسبب حقدهم ، قد
سَلِمَتْ منهم عقولهم فهم لا يفقهون !

والآن مع الكتاب السخيف الذي يظن صاحبه ومن يقفون وراءه
أن بإمكانهم تشويه صورة الرسول والإجلاب على القرآن وعظمته
وإعجازه . والواقع أني لم أردّ على كل الشبهات بل اقتصرت على
الشبهات اللغوية وعدد كبير من الشبهات الأخرى التي تتناول
مضمون القرآن ، وفيها غنيّة عما لم أردّ عليه من اعتراضات . وقد
كتبتُ هذه الصفحات وأنا بعيد عن المراجع الكتابية ، اللهم إلا
الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس ، ثم إنني سطرْتُها في وقت
انشغال ببعض الأبحاث والأبحاث الأخرى .

إبراهيم عوض

٢٠٠٣م

الفصل الأول
(الشبهات اللغوية)

الشبهات اللغوية

فى هذا الفصل نتناول ما سمّاه الجاهل بـ « الأسئلة اللغوية » ،
وهى الأسئلة الخمسة والعشرون التى عقد لها فصلا مستقلا غطى
الصفحات ١٠٧ - ١١٢ . والهدف الذى يتخيّاه من وراء هذه
الشبهات هو أن يلتقى فى روع القراء أن القرآن الكريم أخطاء لغوية ،
وهذا دليل على أنه لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا
يخطئ ، وهو إذن من تأليف محمد . ولسوف أفاجئته وأسلكت فى الرد
على هذا القىء سبيلا لا يتوقعها هذا الجاهل ولا خطرت له ببال ، إذ
سأفترض أن محمدا هو فعلا صاحب القرآن ، ثم أعاجله بمفاجأة
أخرى لا تقلّ عن الأولى إذها لا إن لم تزد . هذه هى المسألة كما
يقول شكسبير !

فالمعروف أن أية لغة هى من صنع أهلها الأوائل الذين تكون
ممارستهم لها حينئذ بالسليقة ، أى بدون أن يكونوا واعين تماما
بالقواعد التى تحكمها ، بل يتشرّبها كل جيل من الجيل السابق عليه
تشرّباً ، ثم تاتى بعد ذلك مرحلة أخرى تُجمّع فيها اللغة وتُستخلص
قواعدها من كلام أهلها ، فما قالوه يكون هو الصواب ، وما لم
يقولوه لا يكون مقبولا .

وَلِنَطَبِّقَ الْآنَ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : لَقَدْ كَانَ الْجَاهِلِيُّونَ
يَحَارِسُونَ الْعَرَبِيَّةَ بِالسَّلِيقَةِ ، وَكَانَ كَلَامُهُمْ هُوَ مَقْيَاسُ الْخَطِإِ
وَالصَّوَابِ . وَبَطْبِيعَةُ الْحَالِ فَإِنَّ شُعْرَاءَهُمْ وَخُطَبَاءَهُمْ كَانُوا يُمَثِّلُونَ أَرْقَى
الْمُسْتَوَيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ لِكُونِهِمْ أَفْضَلُ قَوْمِهِمْ ثِقَافَةً وَذَوْقًا أَدْبِيًّا وَرَهَافَةً حَسًّا ،
وَكَانَ مُحَمَّدٌ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشَقِّقِينَ ، مَثَلُهُ مَثَلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ
وَطَرْفَةُ وَزْهِيرٍ وَالْأَعَشَى وَقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ وَحَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ
الشُّعْرَاءِ وَالْخُطَبَاءِ الَّذِينَ أُخِذَتْ عَنْهُمْ اللُّغَةُ ، وَمِنْ كَلَامِهِمْ قُعْدَتُ
قَوَاعِدِهَا ، فَهَلْ سَمِعَ أَحَدٌ أَنَّ شَخْصًا قَدْ خَطَبَا أَبَا مِنْ هَؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ أَوْ
الْخُطَبَاءِ ؟ إِنْ هَذَا لَمْ يَحْدُثْ ، وَلَنْ يَحْدُثَ . فَقَرَّانَ مُحَمَّدٌ إِذَنْ هُوَ ،
عَلَى أَسْوَأِ الْفُرُوضِ ، مِثْلُ شُعْرِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ مِثْلًا أَوْ خُطْبِ قُتَيْبِ بْنِ
سَاعِدَةَ ، أَيْ أَنَّهُ هُوَ الْمِيزَانُ الَّذِي يُحْكَمُ إِلَيْهِ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُهْتَدَى بِهِ^(١) ،

(١) انظر ، في المصادر التي جُمِعَتْ مِنْهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ ، د. أَحْمَدُ مُحَمَّدٌ قُدُورُ /
مدخل إلى فقه اللغة العربية / دار الفكر المعاصر / بيروت / ١٤١٣ هـ -
١٩٩٣ م / ٦٣ وما بعدها حيث يذكر الشعر الجاهلي والقرآن الكريم وكلام
العرب ، ويحمل القرآن هو النص الأماسي لأنه ، على عكس الشعر الجاهلي ، لم
يصبه تحريف لا اعتماد حفظه على كل من الذاكرة والكتابة منذ اللحظة الأولى .
ومع ذلك يراني القارئ قد ذهبت إلى أقصى مدى في التساهل مع الموهوسين
بتخبط القرآن حيث سَوَّته بالشعر الجاهلي وجعلت الرسول في ذلك مثل أَمْرِئِ
الْقَيْسِ وَعَتْرَةِ وَقُتَيْبِ بْنِ سَاعِدَةَ .

أما إن تطاول أحد وتطلع إلى تخطيطه فتلك هي العظمة الكبرى . وهذا ما فعله هذا الأحمق الموسوم بـ « العبد الفاضل » !

وفضلاً عن ذلك فينبغي ألا يفوتنا أنه لو كان في القرآن الكريم أى خطأ لغوى مهما قَفَّهَ لَمَّا مشركو العرب الدنيا صياحا واستهزاء بمحمد . لقد افترؤا عليه الأكاذيب ولم يألوا جهداً فى اتهامه زورا وبهتانا بأنه مجنون وأنه ساحر وأنه كذاب وأنه إنما يعلمه بشر ، ولكن رغم كل هذا لم يجزؤ أحد منهم قط أن يهمس مجرد همس بأن فى القرآن أخطاء لغوية ، مع كثرة ما تحداهم أن يأتوا بقرآن مثله أو بعشر سُورٍ منه أو حتى بسورة واحدة تشبه سُورَه ، وكثرة ما نشب بينهم وبينه من حروب كلامية ومعارك بالسيف والرمح والحصان . فما معنى هذا ؟ إن أعداء محمد من المبشرين لا يخجلون ! ذلك أنهم إنما يحركهم الحقد والدناءة ، وناسٌ هذه دوافعهم كيف ننتظر منهم أن يعملوا عقولهم أو يتقوا ربهم ؟

وطريقتنا مع الشُّبُه اللغوية التى لُقِّنها العبد الفاضل كما يُلَقِّن الأطفال هى أن نذكر كل شبهة منها ونبين ما فيها من رقاعة وجهل ثم ننفع فيها نفخة خفيفة فتطير فى الهواء هباءً منثوراً . ولكن قبل أن نبدأ نحب أن نوجه نظر القراء إلى أن معرفة هذا الجاهل بقواعد

اللغة العربية ، حسبما يبدو من أسلوبه نفسه أو من الاعتراضات التي يثيرها ضد أسلوب القرآن ، هي معرفة تافهة فجأة . وهذه جملة من أخطائه في الكتاب الذي يبين أيدنا :

قال مثلا : « فجملة السماوات والأرضى أربعة عشر » (ص ٢٢) ،
وصوابها لكل من له أدنى إلمام بقواعد اللغة هو : « أربع عشرة » ،
وقوله عن مريم أم المسيح عليه السلام : « ... مع أن بينها وبين
عمران وهارون وموسى ألف وستمائة سنة » (ص ٣٠) ، والصواب
هو : « ألفاً وستمائة سنة » ، وقوله : « ... مع أن بين الحادثتين زمن
مديد » (ص ٥٨) ، وصحته : « زمتا مديدا » ، وقوله : « كيف
يكون حال بيت يكذب فيه الزوجان على بعضهما ؟ » (ص ٦٨) ،
والصحيح : « يكذب فيه الزوجان أحدهما على الآخر ، أو يكذب فيه
أحد الزوجين على الآخر » ، أما ما قاله فهو كلام العوام من أشباهه .
ومن أخطائه أيضا قوله : « نتساءل إن كان ما رواه الأولون حق أم
شبهه الحق » (ص ٩٩) ، وصحته : « حقا » ، وقوله : « وتكون
رسالة الأنبياء وتكليفهم بالكراسة والدعوة عبث لا ضرورة له ولا فائدة
منه » (ص ١٠٣) ، وتصويبه : « عبثا » ، وقوله : « ... بشرط أن
تجتمع رجلا غيره يسمى محلل » (ص ١٣٩) ، وصوابه : « يسمى
محللا » ، وقوله : « يعتقدون أن أحكامها ملغية » (ص ١٩٨) ،

وتصحيحه : « مُلغاة » ، وقوله : « خانوا نظام المجتمع بإتيانهم نسائهم بعد صلاة العشاء » (ص ٢٠١) ، وصحته « بإتيانهم نساءهم » ، وقوله : « معروف ، أن لكل لغة أدياؤها » (ص ٢٠٣) ، وتصويبه : « أدبائها » ، وقوله عن الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه : « كانت له عند وفاته تسع نسوة أحياء وسُريتين » (ص ٢٠٧) ، والصحيح : « وسُريتان » ، وقوله عن الرباعية إنها « الأستان الأربعة الأمامية » (ص ٢٤) ، والصواب أنها الواحدة من هذه الأستان الأربع لا كلها ، وقوله : « كانوا اثني عشر ألفا : العُشر الذين حضروا فتح مكة ، وألفان انضموا إليه من الطلقاء : هوازن وثقيفا » ، وفيه غلطتان قبيحتان : « العُشر » وصوابها : « العشرة » (أى عشرة الآلاف الذين حضروا فتح مكة) ، ثم « وثقيفا » ، وصوابها : « وثقيف » (فهى معطوفة على « هوازن » ، التى هى بدل من « الطلقاء » المجرورة) ، وقوله : « فإذا أراد أن يزوج زينباً لابنه زيد ... ، وإذا أراد محمد زينباً ... » (ص ٢٤٧) ، وصحته « زينب » يفتحة واحدة لأنه ممنوع من الصرف ... وهكذا .

ويبلغ خزيُّ هذا الجاهل أقصاه حين يخطئ القرآن الكريم فى قوله تعالى : « من بعد ضراءِ مسته » ، إذ يتحدث فى تعالم سفيه مؤكداً أن وضع فتحة على همزة « ضراء » خطأ لأنها مجرورة ، ومن

ثم يجب وضع كسرة^(١) تحتها (مر ١٠٨). وفات هذا الأرعن أن
«ضراء» ممنوعة من الصرف فتُجرُّ بفتحة واحدة كما هي في الآية ،
أما الجر بالكسر فلا تعرفه العربية إلا بكسرتين اثنتين لا بكسرة واحدة.
بل إنه ، لفرط جهله ، يخطئ في نقل آية قرآنية دون أن يحسّ بأنه قد
أبى شيئا ، ومرجع ذلك إلى بلادة إحساسه . جاء في كلامه عن نوح
عليه السلام أن القرآن يقول . « وجعلنا ذريته هم الباقون »
(الصافات / ٧٧) ، وهي بنصب « الباقين » لا برفعها كما كتبها
الأحمق .

وإن الإنسان ليذهل من إقدام مثل هذا الجاهل الغشوم الذي
يخطئ تلك الأخطاء الأولية على تخطئة القرآن الكريم . بيد أننا ، عند
مراجعة الأمر جيدا في ضوء منطق الأشياء وطبيعتها ، نرى ألا موضع
للذهول ولا حتى للاستغراب ، إذ ما أسهل أن يخط الجاهل الذي لا
يصر ولا يقدر على التمييز بين الصواب والخطأ خيط عشواء ، وفي
حسابه أنه يحسن صنعا ! ولولا أن هناك جهلة مثله يمكن أن
ينخدعوا بمثل هذه التشويشات ما هالنا بها ولا بتوجيه النظر إلى ما
فيها من سخف وضلال . وعلى هذا فببركة الله نبدأ فنتناول تخطئاته
القشوم مبينين ما فيها من تفاهة وجهل :

(١) كسرة واحدة . لاحظ !

١ - يقول (مر ١٠٧) إن « الصابثون » فى قوله تعالى فى الآية ٦٩ من سورة « المائدة » : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابثون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » كان يجب أن تُنصَبَ لأنها معطوفة على «الذين آمنوا» الواقعة اسما لـ « إن » . وقد كان كلامه يكون صحيحا لو أنها معطوفة فعلا على «الذين آمنوا» ولم يكن لها إعراب آخر يهدف إلى نكتة بلاغية لا تتوفر فى الإعراب الذى وهبته . وهذا الإعراب الآخر قد أومأت إليه إيماءً بالطريقة التى استعملت بها علامات الترقيم فى الآية ، حيث وضعت عبارة « والذين هادوا ... وعمل صالحا » بين فاصلتين بما يدل على أنها عبارة اعتراضية ، ويكون تقدير الكلام هكذا : « إن الذين آمنوا لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وكذلك الذين هادوا والصابثون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا » . أى أن «الذين هادوا» مبتدأ خبره كلمة « كذلك » ، فهو إذن مرفوع ، وكذلك المعطوفان عليه : «الصابثون والنصارى» . وقد حذفت كلمة « كذلك » ، وانتقلت جملة المبتدأ والخبر لتحتل المكان الذى يقصّل بين اسم «إن» وخيرها . أما النكتة البلاغية فى الآية فهى الإشارة إلى

أن اليهود والصابئين والنصارى هم أيضاً ممن يستطيعون النجاة يوم القيامة إذا دخلوا قيما دخل فيه المسلمون من الإيمان بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات ، بمعنى أن الجنة في الإسلام ليست مقصورة على العرب وحدهم بل هي مفتحة الأبواب حتى لليهود والصابئين والنصارى وأمثالهم ^(١) . أي أن الإسلام ليس كاليهودية مثلاً المقصورة على بنى إسرائيل فلا يمكن أن يشاركهم غيرهم في الهداية والنجاة لأن ربّ الكون إله خاصّ بهم ، والنجاة نجاتهم وحدهم ... وهكذا . فهذا ما أراده القرآن بصياغة الآية على ذلك النحو المرجز البليغ الذى لا يستطيع الجاهل أن يدركوا مراميه لأن القرآن لم ينزل على أمة من الجاهل المتحذلقين من أمثال هذا الأحمق بل نزل بالأسلوب الذى يفهمه العرب ، ومن ثم لم يجدوا فى هذا الإعراب ما يمكن أن يؤخذ عليه ، وإلا ملأوا الدنيا صراخاً واعتراضاً ، وهم الذين اتهموا الرسول ، كما ذكرنا ، بكل نقیصة مما هو بعيد عنه بعد السماء عن الأرض ، إلا أنهم لم يحرموا حول اتهام لفته بالخطأ . وهناك من يوجهون «الصابئين» على أنها منصوبة رغم ذلك ، ولكن على لغة قبيلة بلحارث بن كعب ، الذين يعمرون جمع

(١) الملاحظ أن علماءنا القدامى قد انشغلوا بتوجيه إعراب «الصابئين» فقط كأنها هي وحدها المرفوعة . وأرجو من ذلك عندي هو ما قلته هنا ، والله أعلم .

المذكر السالم بالواو فى كل الأحوال رفعا ونصباً وجراً مثلما يعرفون
المثنى بالآلف دائماً فى هذه الحالات الثلاث جميعاً، كما أن هناك
توجيهات أخرى لا نقف عندها .

ومن الشواهد على الإعراب الذى اخترناه بيت ضابط البرجى
المشهور الذى يتحدث فيه عن غربته بالمدينة هو وقَّارِ قَرَسِه :

فَمَنْ بَكَ أَمْسَى بِالْمَدِينَةِ رَحْلُهُ فَإِنِّى ، وَلِقَارِ ، بِهَا لَقَرِيبُ
وكذلك بيت بشر بن أبى حازم :

وإِلا فاعلموا أَنَا ، وَأَنْتُمْ ، بُغَاةٌ مَا بَقِينَا فِى شِقَاقِ

حيث أتى بضمير الرفع « أَنْتُمْ » بعد الواو ، التى لو كانت واو عطف
كما وهم الأحمق الجهول لقال : « فاعلموا أَنَا وإِياكُمْ ... » ، بل
« أَنْتُمْ » مبتدأ ، وخبره محذوف ، وجملة المبتدأ والخبر جملة اعتراضية .
ومما يجرى من الشعر أيضاً على هذه الصورة البيت التالى ، وهو من
إنشاد ثعلب :

عَلِيلِيْ ، هَلْ طِبُّ ؟ فَإِنِّى ، وَأَنْتُمْ ، وَإِنْ لَمْ تَبْرَحَا بِالْهَرَى ، فَتَفَانِ
وقول رؤبة :

يَا لَيْتَنِى ، وَأَنْتِ ، يَا لَيْسُ فِى بِلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنْيْسُ

وكذلك هذا البيت :

فمن بك لم ينتجب أبوه وأمه فإن لنا الأم النجيبة والأب

وهذا البيت أيضاً :

وما فصرت بي في التماسي غزولة ولكن عمى الطيب الأصل والغال

٢ - ويقول الكاتب النزق (ص ١٠٧) إن في نصب « الظالمين »
في قوله تعالى في الآية الرابعة والعشرين بعد المائة من سورة « البقرة » :
« قال (أى الله لإبراهيم) : لا ينال عهدى الظالمين » خطأ لأنها فاعل ،
فكان يجب أن يقال : « لا ينال عهدى الظالمون » . وقد قال علماؤنا
القدماء في تفسيرهم لهذه الآية إن هناك قراءتين : إحداهما هي هذه
التي بين أيدينا ، والأخرى بالرفع ، ووجهها ذلك قائلين إن المعنيين
مستقاربين لأن كل ما نقلته فقد نالك . وقد لاحظت أن بعض الآيات
التي ورد فيها هذا الفعل قد وردت على نحو آيتنا هذه ، وبعضها الآخر
بالعكس . ومن الأخيرة قوله تعالى : « لِيَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّيدِ
تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ »^(١) ، وقوله : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما

(١) المائدة / ٩٤ .

تحيون»^(١)، ومن الأولى قوله : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم »^(٢) . وقد يصح أن نذكر هنا أيضًا قوله تعالى على لسان زكريا في حديثه عن تقدمه في السن في الآية ٤٠ من « آل عمران » والآية ٨ من « مريم » على الترتيب : « وقد بلغتُ الكبرُ ، وامرأى عاقرٌ » ، « وقد بلغتُ من الكبر عتياً » حيث أتى الضمير العائد على زكريا عليه السلام في الأولى مفعولاً به و « الكبر » فاعلاً ، وفي الثانية فاعلاً ، و « الكبر » متعلقاً بالمفعول به . وفي كل من التركيبين نكتة خاصة ، إذ توحى الأولى بأنه قد قطع الشوط الأكبر من مسيرة الحياة ، على حين توحى الثانية بأن الكبر يطارده ويسعى إلى اللحاق به ، بينما يحاول هو قوّته ، لكن الكبر يدركه في نهاية المطاف .

وعودةً إلى آهتنا نقول إن « العهد » المذكور في الآية قد تمّ بين الله سبحانه وإبراهيم عليه السلام وانتهى الأمر ، فلم يعد لمة مجال للقول بأن ذرية إبراهيم يمكن أن تدركه أو لا تدركه ، لكن من الممكن القول مع ذلك بأنه يصدق على بعضهم ولا يصدق على بعضهم الآخر حسب استحقاقهم ذلك أو عدمه . أى أن معنى الآية :

(١) آل عمران / ٩٢ .

(٢) الحج / ٣٧ .

« لا يَصْدُقُ عَهْدِي عَلَى الظَّالِمِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ ». وهذا هو الوجه الذي
أخترته ، وإن كنت لا أقلل من شأن ما قاله علماؤنا رحمهم الله .
وبهذا التركيب وردت الآيات التالية : « لن ينال الله لحومها ولا
دماءها ، ولكن يناله التقوى منكم » ، « أولئك ينالهم نصيبهم من
الكتاب »^(١) ، « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم
وذلة في الحياة الدنيا »^(٢) . وبه أيضاً وردت الجمعلتان التاليتان في
الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى : « لذلك نالتنا هذه الشدة »^(٣) ،
« لم يتلَّكم من قبلنا خسران في شيء »^(٤) .

وقد رجعت ، رغم ذلك كله ، إلى عدد من المعاجم التي ألفها
نصارى لأرى ماذا تقول عن هذا الفعل ، فوجدت « البستان »
و« الوافي » لعبد الله اليستاني ، و« المنجد » المشهور ، و« الرائد »
لجبران مسعود تقول جميعاً في مادة « ن ي ل » : « نالني من فلان
معروف » ، أي وصل إلي منه معروف . وفي « مدد القاموس » لإدوارد
وليم لين (Edward William Lane) في المادة ذاتها أن من معاني

(١) الأعراف / ٣٧ .

(٢) الأعراف / ١٥٢ .

(٣) تكوين / ٤٢ / ٢١ .

(٤) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثس / ٩ / ٧ .

الفعل « نال » : « It reached him, came to him » ، بمعنى
« وصل إليه » ، أى أن هذا الفعل يقع كذلك من الشيء على الشخص
كما تفيد العبارة الإنجليزية بكل جلاء . وأحسب بعد ذلك كله أنه
ينبغي على الجهلة أن يخرسوا ولا يفتحوا فمهم بكلمة !

كذلك يخطئ الدعى قوله تعالى فى الآية ٥٦ من سورة
« الأعراف » : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » ، حيث ورد خبر
« إن » مذكراً على حين أن اسمها مؤنث ، « وكان يجب (حسبما
يقول) أن يتبع خبر « إن » اسمها فى التأنيث فيقول : قريبة »
(ص ١٠٧) . وهو كلام يبعث على القهقهة ، إذ يشبه تصدى طفل
فى الروضة لسيبويه يعنى تخطئته . إن مثل هذا الأحق لا يعرف أن
الأسلوب العربى الأصيل كثيراً ما يبقى على صيغة التذكير فى
الصفات التى على وزن « فَعِيل » إذا كانت بمعنى « مفعول » مثل
« لحية دهن » و « كف خضيب » و « امرأة جريح » و « ناقة
طعين » ، أو إذا كانت بمعنى « ذات كذا » على تأويل « إن رحمة
الله ذات قرب من المحسنين » ، أو للتمييز بين قرابة النسب وبعده وبين
قرابة المسافات وبعدها . وثمة اعتبارات أخرى تُطلَب فى مظانها من

الكتب الموسعة نضرب عنها صفحا لأننا لا نبتغي التكثر ، بل كل
 همنا أن نوضح لخالي الذهن ممن قد يقع فريسة لهذه التشويشات
 الطفولية أن الأمر أصح مما يهيم به هذا الصغير^(١) . ومن ذلك أيضا
 الآية ١٧ من « الشورى » : « وما يذكرك ؟ لعل الساعة قريب » ،
 والآية ٦٣ من « الأحزاب » : « وما يذكرك ؟ لعل الساعة تكون
 قريبا » ، والآية ٨٣ من « هود » : « وما هي من الظالمين بهعيد » ،
 والآية ٣١ من « ق » : « وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » ، والآية
 ٧٨ من « يس » : « قال : من يحيى العظام وهي رميم ؟ » ، والآية
 ٢٩ من « الذاريات » : « عجز عقيم » ، والآية ٤١ من « نوح » : « وأرسلنا عليهم الريح العقيم » ، والآية ٨ من « الإسراء » : « وجعلنا

(١) وما تخلف منه أيضا « تاء التأنيث » الصفات التي على وزن « فَعُول » بمعنى
 « فاعل » مثل « امرأة قتول » و « بمن حموس » و « حمامة هتوف » ، وكذلك
 بعض الصفات التي على وزن « فاعل » مما تنفرد به النساء مثل « طالق »
 و « حائض » ، وصفات المبالغة التي على وزن « مِفْعَال » مثل « فتاة مِعْطار »
 و « طالبة مِهْندار » . وعلى الناحية الأخرى نجد للرجال صفات تنتهي بـ « تاء
 التأنيث » مثل « علامة » و « رحالة » و « نساء » و « فهامة » ... وهكذا .
 المسألة إذن ليست بالبساطة ولا الخفة التي يظنها هذا الجهول . وفي « العهد
 القديم » يوجد سفر بعنوان « الجامعة » ، وهو لقب لسليمان رحمه الله التأنيثية ،
 فلماذا يميل هذه ، ويقوم في نفس الوقت الدنيا ويقعدها بسبب « قرب » ، التي
 وصفت بها « الرحمة » و « الساعة » في القرآن ؟

جهنم للكافرين حصيرا . أترى القرآن قد أخطأ في ذلك كله
وسكت عنه المشركون فلم يستغلوا هذه الأخطاء التي كان من شأنها
أن تضربه في الصميم ، إلى أن جاء هذا الصغير الهجاء فاكشفها ؟
ومن شواهد ذلك الاستعمال في الشعر العربي القديم قول امرئ
القيس :

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريباً ولا البساسة ابنة بشكراً
وقول عبيد بن الأبرص :

فَفَقَضْتُ ريشها وانتفضت وهي من نهضة قريب
وهذا البيت الذي ورد بالصيغتين التاليتين :

عشيّة لا عفراء منك قريبة فتدنو ولا عفراء منك بعيدة

ليالي لا عفراء منك بعيدة فتسلى ولا عفراء منك قريباً

وقول تأبط شراً يصف الغول : « فخرت صرهما للبيدين وللجيران »
وقول عبيد بن الأبرص أيضاً : « قليلاً بها الأصوات إلا عوازفا . » وما
جاء في شعر الأعشى من استعمال صيغة « فعيل » للمؤنث : « الخمر
العتيق » ، و « آلت (أى الناقة) طليحاً » و « ناقة) مقلات
دهين » . وفي شعر المتنبي العبدى نقرأ في وصف الناقة : « ماهرة

دهين ، (والدهين : القليلة اللبن) ... إلخ .

وفى « مدّ القاموس » لوليم إدوارد لين و « محيط المحيط »
لبطرس البستاني و « البستان » لعبد الله البستاني و « لاروس »
(العربي) ، وكلها (كما ترى) معاجم ألفها نصارى ، أن الصفة
« قريـب » إذا كانت للقرب المكاني أو الزماني تُستعمل بصيغة واحدة
للمذكر والمؤنث والمثنى والمفرد والجمع . ومن ذلك قول السموأل
اليهودى :

تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الْكَرَامَ قَلِيلٌ

بل إن من اللغويين من يخطئ إلحاق تاء التأنيث فى قولنا مثلاً :
« قلانة جريح »^(١) .

* * *

٤ - ومن جرأة هذا العيبى تخطئته قوله عز شأنه عن بنى إسرائيل
فى الآية ١٦٠ من سورة « الأعراف » : « وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا أَمَمًا » ، إذ « كان يجب (فى وهمه) أن يذكر العدد ويأتى
بمفرد المعداد فيقول : اثنى عشر سبطاً » (ص ١٠٧) ، مع أنه لا وجه

(١) انظر د. إميل بمقرب / معجم الخطأ والصواب فى اللغة / دار العلم للملايين /

١٩٨٣ م / ١٠٤ .

لوجوب هذا التركيب ، بل التركيبان كلاهما جائزان ، لكن الجاهل
يحسب أنه لا يصح إلا ما يعرفه فقط رغم أن ما يعرفه لا يعدو أن
يكون فتاة من الفئات . وتوجيه الكلام في الآية هو على النحو التالي :
« وقطعناهم اثنتى عشرة (قطعة ، وجعلنا هذه القطع) أسباطاً أمماً .
ف « أسباطاً أمماً » بدل من « اثنتى عشرة » وليست تمييزاً لها .
ويتضح ما نقول إذا عكسنا التركيب فقلنا : « وقطعناهم أسباطاً أمماً
اثنتى عشرة » . ومثلها في القرآن الكريم أيضاً قوله تعالى في الآية ٢٥
من « الكهف » : « وليثروا في كهفهم ثلاثمائة سنين ، وازدادوا تسعا »
بدلاً من « ثلثمائة سنة » في التركيب المعتاد ، وكلاهما صحيح .
والمعنى : « وليثروا في كهفهم سنين ثلاثمائة » .

وقريب من ذلك قول كاتب سفر « العدد » من كتابهم المقدس
في الفقرة ١٣ من الفصل التاسع والعشرين : « أربعة عشر حملاً
حولياً صحاح » بجمع « صحاح » على أساس أنها تابعة لـ « أربعة
عشر » لا لـ « حملاً حولياً » ، وإلا لقال : « أربعة عشر حملاً حولياً
صحاحاً » مثلاً فعمل في سائر المواضع الأخرى من نفس الفصل .
ومثله ما جاء في الفقرة ١٧ من الفصل الثالث عشر من سفر « أخبار
الأيام الثاني » من أنه قد « سقط قتلى من بني إسرائيل خمسمائة ألف
رجل متخبرون » بدلاً من « خمسمائة ألف رجل منتخب » بالإنفراد

والجبر لا بصيغة جمع المذكر السالم المرفوع . ومثل الآية القرآنية بالضبط ما جاء قبل ذلك في الفقرة الثالثة من نفس الفصل من أن يربعم قد صافً أَيْباً « ثمانمائة ألفٍ متتخين من جبابرة البأس » وما جاء في الفقرة ١٧ من الفصل الحادى عشر من السفر نفسه من أنه كان مع ألياداع « مائتا ألفٍ مسلحون بالقسى والثروس » ، ومع يوزاباد « مائة وثمانون ألفا متجردون للحرب » ... إلخ .

* * *

٥ - ومن مخافته الطفولية أيضاً توهمه أن من الواجب تغيير قوله تعالى في الآية ١٩ من سورة « الحج » : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » ليصبح « هذان خصمان اختصما فى ربهم » (ص ١٠٧) . وهو فى هذا يشبه صبيا صغيرا يمسك بمسطرة صغيرة فى يده يريد أن يقيس بها جبل الهملايا . ألا فليعلم وليتعلم هو ومن صدره لتخطئة القرآن وطبعوا له كتابه وأطلقوه لينجح الإسلام أن كلماتٍ مثل « خصم » و « طائفة » و « حزب » و « فريق » ، وإن اتخذت صيغة الإفراد ، تدل على جماعة من الناس . وقد وردت للضمائر العائدة على هذه الكلمات فى القرآن بصيغة جمع المذكر بناءً على هذا الاعتبار . قال تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا

المحراب ٩، (ص/ ٢١)، «ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم»
 (آل عمران / ٦٩)، «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يقشّي
 طائفة منكم، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظنّ
 الجاهلية» (آل عمران / ١٥٤)، «فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا
 أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من وراءكم، ولتأب طائفة أخرى لم
 يصلوا فليصلوا معك» (النساء / ١٠٢)، «فله لا نفر من كل فرقة
 منهم طائفة ليتفقهوا في الدين» (التوبة / ١٢٢)، «فإن حزب الله
 هم الغالبون» (المائدة / ٥٦)، «كلّ حزب بما لديهم فرحون»
 (الروم / ٣٢)، «ألا إن حزب الله هم المفلحون» (المجادلة / ٢٢)،
 «إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» (فاطر / ٦)، «وقد
 كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم
 يعلمون» (البقرة / ٧٥)، «نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب
 الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون» (البقرة / ١٠١)، «ويستأذن
 فريق منهم النبي يقولون: إن يبيوتنا عورة» (الأحزاب / ١٣)، «إن
 تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم من بعد إيمانكم كافرين»
 (آل عمران / ١٠٠).

هذه واحدة، والثانية أنه إذا نتي «الخصم» أو «الطائفة» أو

«الفرق»^(١) فى القرآن . فإنه يستعمل لها ضمير جمع الذكر إذا كانت العلاقة بين الخصمين أو الطائفتين أو الفريقين علاقة خلاف مثل : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » (الحج / ١٩) ، « إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا : لا تخف ، خصمان بنى بعضنا على بعض » (ص / ٢٢) ، « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الحجرات / ٩) ، « فإذا هم فريقان يختصمون » (النمل / ٤٥) . ويدور لى أن الحكمة من وراء ذلك هى الإيماء ما تستتبعه الخصومة من اشتياك وتداخل بحيث يمزج بعضهم فى بعض ولا يعودان منفصلين أو متميزين . وهذا كله مما لا يقدر أمثال هذا الجاهل أن يدركوه من تلقاء أنفسهم . ولعله بعد يد المساعدة التى مُدَّت له يكون قد استوعب الدرس ، وإن كنت أشك كثيرا فى ذلك لما يبدو من بلادة ذهنه وسواد قلبه تجاه سيدنا وسيده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٦ - أما القلطة السادسة التى لا وجود لها إلا فى ذهن ذلك المأفون المسكون بالأوهام والضلالات فهى زعمه أنه كان يجب أن يقال : « وخضتم كالذين خاضوا » بدل قوله تعالى فى الآية ٦٩ من

(١) أما كلمة « حزب » فلم تأت فى القرآن مثلاً .

سورة « التوبة » : « وخضتم كالذى خاضوا » (ص ١٠٧) ، أى أن المشبه به ، فى نظره الكليل ، هو جماعة أخرى من الخائضين . وقبل أن أفند هذا التنطع الغشوم أحكى القصة التالية : فقد حضرت ، وأنا فى أكسفورد فى أواخر السبعينات ، محاضرة لشاب متحلق من المستشرقين كان هجّاماً طويل اللسان مع طلابه ، فسمعتة يقول أثناء المحاضرة إن فى القرآن شذوذات لغوية ، فانتظرتُ حتى انتهى الدرس وخرج فخرجت معه أسأله أن يضرب لى أمثلة على هذا الذى يدّعيه ، فأشار إلى هذه الآية قائلاً : تجد الإشارة إليها فى تفسير الطبرى . ولم أكذب خبراً ونزلت فى الحال إلى مكتبة المعهد وقلبت تفسير الطبرى فلم أجده ذكر شيئاً من ذلك ، فقلت : أنظر فى تفسير النيسابورى الذى على هامشه ، فوجدته ، بعد أن شرح الآية على أساس أن معناها : « وخضتم (أيها المتأفقون) كالخوض الذى خاضه أمثالكم فى الأزمنة السابقة » ، قد أضاف هذه العبارة : « وقيل : أصله « كالذين » فحذف النون » . فاستغربتُ من تدليس المستشرق الصغير الذى أكد لى بقوة أن الطبرى هو قائل ذلك ، بل لقد أزعجهم كلامه أن هذا هو التفسير الوحيد الذى قال به ذلك العلامة الجليل . وكل ذلك غير صحيح كما قلت ، بل قائله هو النيسابورى ، الذى أرجأه إلى ما بعد الفراغ من التفسير الذى ذكرته ، وأورده بصيغة التمرىض :

« قِيلَ » ، التى تدل على أنه غير مقتنع به . والشاهد فى هذه القصة أن صوبيحنا إنما يردد ما يلقنونه إياه دون فهم كاليبغاء !

ونُورد الآية من بدايتها حتى تنجلي الحقيقة لمن لهم أعين يصرون بها ، وأذان يسمعون بها ، وقلوب يفقهون بها ، أما الذين ختم الله على قلوبهم ، وجعل فى آذانهم وقرا ، وعلى عيونهم غشاوة ، فهؤلاء ميؤوس من حالهم . تقول الآية ، وقد وردت فى سياق تعنيف المنافقين وفضح مؤامراتهم والأعيبهم الصبيانية وخوضهم العابث فى سمعة النبی عليه السلام وفى آيات القرآن : « كالذين من قبلكم . كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم ، فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا » . وواضح تماما أن الآية تقول إن المنافقين قد استمتعوا بنصيبتهم كاستمتاع من قبلهم بنصيبتهم ، فما الذى يقتضى المنطق أن نفسره به الجملة التالية بعد ذلك فى الآية ؟ أليس من الطبيعى أن نقول : « وخضتم كالخوض الذى خاضوه » حتى يتسجم الكلام بعضه مع بعض ويكون المشبه به فى الجملتين هو استمتاع من قبلهم وخوضهم ؟ لو قلنا : « استمتعتم كاستمتاعهم ، وخضتم كالذين خاضوا » لذهب الانسجام من الآية

علي الفور وأصبحت قلقة . ثم ما معنى « وخضتم كالذين خاضوا » ؟
 وإذا كان المقصود هم الذين قبلهم ، فلماذا لم تستعمل الآية الكريمة
 الضمير بدلا من الاسم الموصول فتقول : « وخضتم مثلهم » بغض
 النظر عن غموض المعنى ؟ ولنفترض أننا ضربنا صفحا عن ذلك كله
 وقلنا إن المقصود فعلا هو « وخضتم كالذين خاضوا » ، فهل يكون
 ذلك خطأ لغويا ؟ كلا . ذلك أن المفسر الذي شرحها هذا الشرح قد
 أقام كلامه على أساس أن من العرب القدماء من كان يستعمل
 « الذي » بمعنى « الذين »^(١) . ليست المسألة إذن مسألة خطأ بل
 مسألة فصاحة وعدمها ، وهذا هو الذي دفعني إلى سوق الأسباب
 المنطقية والبلاغية التي تجعلني أرفض ذلك التفسير ، وهذا كل ما
 هنالك^(٢) .



(١) ومن ذلك قول الأشهب بن رميلة :

وإن الذي حاثت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
 كما أن من العرب القدماء أيضا من كانوا يستعملون في حالة الرفع « الذون » ،
 وفي حالتى النصب والجر « الذين » . والذين لهم إلام يكتب النحو الموسعة
 يعرفون جيدا البيت الذي يقول صاحبه : « نحن الذون صبحوا الصباحا ... » ،
 وهي لغة الهذليين .

(٢) سبق أن تناولت هذه المسألة بما فيها قصة المشرق الصغير في كتابي « من
 الطبرى إلى سيد قطب - دراسات في مناهج التفسير ومذاهبه » (دار الفكر
 العربي / ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م / ١٦٥ - ١٦٧) .

٧ - ونبلغ الاعتراض السابع ، وفيه يقول عبدنا القاضي (الذي
يحتلج كتابه الحقيق بالأخطاء النحوية الأولية لم يأتس في نفسه الوقاح
الجرأة على التهجم على لغة القرآن الكريم رعونته منه ومليشا) إن في
قوله تعالى في الآية ١٠ من سورة « المنافقون » : « وَأَنفَقُوا مِمَّا
رَزَقَاكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ : رَبِّ ، لَوْلَا أَخَّرْتَنِي
إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصُدِّقَ وَأَكُنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ » خطأ نحويا ، إذ كان
المفروض (حسبما يقول) أن يُنصب فعل الكينونة عطفا على
« أَصُدِّقَ » (ص ٨٠١) . وأنا على يقين أنه لا يعرف لم نصب هذا
الفعل الأخير . إنما هو كلام وضع على لسانه فردده كالبيغاء دون أن
يعي معنى أو يدرك مغزى . أجل ، أنا موقن تمام الإيقان أنه لا يفهم
أن سبب نصب هذا الفعل هو مجيئه بعد « فاء السببية » ، لكن قلنظروا
هذه ولتسارع إلى القول بأنه ما دام القرآن قد امتنع لفظا أو تركيبا
أو إعرابا ما فهو صواب لا يأتيه الغلط من بين يديه ولا من خلفه حتى
لو قلنا إن الرسول عليه السلام هو مؤلفه ، فهو عربي تؤخذ عنه اللغة
ولا يراجع في شيء منها ، فضلا عن أن أحدا من المشركين أو
المنافقين أو نصارى العرب ويهودهم لم يحترض على شيء من لغة
القرآن رغم حرصهم على التشكيك فيه بكل وسيلة .

وعلى أية حال فإن في جزم فعل الكينونة في الآية الكريمة مغزى

دقيقا ، وهو أن قاتل هذا الكلام ، رغم تمنّيه تأجيل موته قليلا ، يعلم أن الاستجابة لأمنيته أمر مستبعد . كيف ذلك ؟ المعروف أن « إن » الشرطية تدل على استبعاد وقوع الشرط أو استحالة ، ومعنى الكلام على أساس جزم « أَكُنْ » هو : « لولا أخبرتني إلى أجل قريب فأصُدّق ، وإن حدث هذا أكن من الصالحين » . أى أنه يعرف أن تأخير موته إلى أجل قريب هو من الاستحالة بمكان . ألم يقل القرآن : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ^(١) ؟ ألم يكن جواب الله الله على من سأله الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا لعله يعمل صالحا ينجيه مما هو فيه من عذاب النار : « كلا ، إنها كلمة هو قاتلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ^(٢) ؟ ألم يعقّب القرآن على من نطقوا بكلمة الإيمان في سَقَر قاتلا : « أتى لهم التناوش (أى كيف يمكنهم أن يفوزوا بالإيمان) من مكان بعيد (أى بعد أن انقضت الدنيا ولم يعد من سبيل إلى تدارك ما فات) ؟ ؟ وعلى عادة القرآن الكريم نراه قد أدى هذا المعنى بغاية الإيجاز ، إذ لم يفعل أكثر من تسكين نون « أَكُونُ » بدلا من فتحها . وهذه هي

(١) يونس / ٤٩ .

(٢) المؤمنون / ١٠٠ .

الفحولة القرآنية المعروفة ، أما الصغار النافهون فأنى لهم أن يفهموا

ذاك ؟

هذا ، وللقدماء توجيه آخر يختلف بعض الشيء عن توجيهي ،
إذ يقولون إن « أَكُنْ » قد جُزِمَتْ عطفا على موضع « فَأَصْدُقْ » ،
على أساس أن تقدير الكلام هو : « إن تؤخرني أصدق » . وهو توجيه
مشكور ومقدور ، لكن ما قلته يذهب إلى الهدف مباشرة دون التعرّيج
هنا أو ههنا ، علاوة على أنى شفعته بالمغزى الذى أحسب أن الآية قد
أرادت الإيماء إليه ولم أسقّه مجردا كما فعل أجدادنا ، رضى الله
عنهم وأثابهم على جهودهم وسبقهم . وتتمّة لهذا المبحث نقول لمن
يريد أن يتعلم ويفهم إن طريق الإعراب ، وبخاصة قبل جمع اللغة
وتدوينها ، أوسع كثيرا مما يُظَنّ : فمثلا فى قولنا : « لا تأكل السمك
وتشرب اللبن » نجد أن الفعل « تشرب » يجوز فيه الرفع والنصب
والجزم ، وفى قولنا : « لا حول ولا قوة إلا بالله » يجوز فى إعراب
اسم « لا » والمعطوف عليه عدد من الصُّوَر تزيد على عدد أصابع
اليَد ، وفى قولنا : « ما كلُّ ما يلمع ذهباً »^(١) يجوز رفع الخبر
وتنصبه ... وهكذا ، إلا أن المحدودى الأفق يتفاحسون فيوقعون أنفسهم

(١) هنا مثل إنجليزى فرنسى ، وتنص فى هاتين اللغتين هو :

"All that glitters is not gold " , " Tout ce qui brille n'est pas or " .

فى المعاطب ! وبالمناسبة فتمَّ قراءة أخرى بنصب « أكون » ، وكلتا
القراءتين عربية بليغة ، وكل ما فى الأمر أن لكل منهما مغزى غير
الذى للآخرى .

٨ - أما الاعتراض الثامن فهو قول الآخر إن الضمير فى كلمة
« ينورهم » من قوله تعالى عن المنافقين فى الآية ١٧ من سورة
« البقرة » : « مثَّلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله
ذهب الله بنورهم » كان يجب أن يكون مفردا فيقال : « ... كمثل
الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنوره »
(ص ١٠٨) . والحق الذى كررناه مرارا هو أن القرآن متى قال شيئا فهو
صواب مليوناً فى المائة ، إذ كلامه هو القاعدة التى يقاس عليها ولا
يصح أن يحاكمه أحد إلى غيره ، وإلا قلبنا الأمور بذلك رأسا على
عقب . إن معنى الآية هو : « مثَّلهم (أى مثل المنافقين مع رسول
الله) كمثل الذى استوقد نارا (لرفاقه) ، فلما أضاءت ما حوله ذهب
الله بنورهم (أى بنور أولئك الرفاق) » . والسبب فى أخذى بهذا
التفسير هو أن المنافقين لم يحدث أن استوقدوا نارا ليروا على ضوءها
الحق والهدى ، إذ ليست هذه شيمة المنافقين ، بل الذى استوقدها

هو الرسول عليه السلام ، فقد أتى بنور القرآن هداية للبشر ، لكن
المتافقين غطوا أعينهم وأغلقوا قلوبهم في وجه دعوته وهدايته ، وهو
ما عبّر عنه القرآن بأن الله قد ذهب عندئذ بنورهم ، أى بمقدرتهم
على الرؤية والاستجابة للداعى الخير .

وتركيب هذه الآية بما فيه من ألفاظ مخلوقة يشبه قوله عز وجل
فى الآية ١٧١ من نفس السورة : « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي
يَنۢتَعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دَعَاً وَنَدَاً » ، أى « مثل الذين كفروا (مع
رسول الله) كمثل (الراعى) الذى ينطق بما لا يسمع (من البهائم)
إلا دعاءً ونداءً » ، إذ إن ما يقول الراعى حينما ينطق بها لا يعدو ،
بالنسبة إليها ، أن يكون مجرد أصوات يدعوها بها لا أكثر ، أما معناه
على وجه التعمين فشىء يقوت إدراكها تمام الفوت^(١) . ومثله
كذلك قوله تعالى فى الآية ٢٦١ من ذات السورة : « مَثَلُ الَّذِينَ
يُنۢفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنۢبِتَتْ سَبْعَ مَنَابِلَ ، فِي
كُلِّ مَنۢبَلٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ » . ذلك أن المنفقين لا يشبهون الحبة ، بل الذى
يشبهها هو ما ينفقونه من مال . وتقدير الكلام هو : « مثل الذين

(١) وقد قال المفسرون القدامى ذلك فى بعض أقوالهم فى تفسير هذه الآية ، ولا
أدرى لماذا لم يقولوا به أيضاً فى الآية التى نحن بصددنا .

ينفقون أموالهم في سبيل الله (مع ما ينفقونه) كمثل (الزارع مع ما
يذرهُ من) حبة أنبتت سبع سنابل^(١). وهذا من أساليب القرآن
الموجزة المحكمة التي تعتمد على بقطة السامع أو القارئ واكتفائه
بالتفصيل عن تطويل الكلام حيث لا تكون هناك نكتة بلاغية في
تطويله .

٩ - ومن الإيجاز القرآني البليغ نصب «المقيمين الصلاة» في
قوله جل جلاله في الآية ١٦٢ من سورة «النساء» : «لكن الراسخون
في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ،
والمقيمون الصلاة ، والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك
سنؤتيهم أجرا عظيما» ، بهدف تخصيصهم بالذكر على سبيل المدح
لبيان أهمية الصلاة في الدين ، إذ هي الرباط الذي يصل المؤمن بربه
ويجعله دائما على ذكر منه . وليس المقصود مجرد «المصلين» بل
«المقيمون الصلاة» أي الذين يؤدونها على وجهها ، وتظهر في
قلوبهم وأعمالهم ثمرتها ، فهؤلاء هم الجديرون بالمدح لا الذين يأتون

(١) وقال المفسرون القدامى ذلك أيضا في تحليلهم لهذه الصورة .

الصلاة وهم كسالى مرءاة للناس أو لمجرد التخلص من عبئها . والمعنى على ذلك هو : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون ... » ، وخاصة المقيمين الصلاة ، والمؤتون الزكاة ... » أو ما أشبه . وهذا من وظائف الإعراب فى الأسلوب العربى الأصيل ، إذ بإبدال حركة بحركة أو حرف بحرف يستغنى المتكلم عن لفظة أو جملة بأكملها . ومن ذلك قول خرتق بنت هفّاف :

لا يبعَدَنَّ قومى الذين همو سَمُّ العُداة وآفة الجُزْرِ
النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الأُزْرِ
وهذان البيتان أيضاً :

إلى الملك القَرَم وابن الهما م وليث الكتيبة فى المزدحم
وذا الراى حين تخم الأمور ربذات الصليل وذات اللحم
وكذلك قول ابن الخياط :

وكلّ قوم أطاعوا أمر سيدهم إلا نَمِيرًا أطاعت أمر عاديها
الظاعنين ولما يُظْهِرُوا أحدا والقائلون : لمن دار نخلُها ؟

يبد أن جاهلنا الذى لا يفقه شيئاً فى العربية يتناول على الآية الكريمة قائلاً : « كان يجب أن يُرْفَعَ المعطوف على المرفوع فيقول :

والمقيمون الصلاة ، (ص ١٠٨) . ترى ماذا هو قائل إذا ذكرنا له أن كلمة «الكريم» فى قولنا مثلاً : «ذهبتُ مع محمدٍ الكريم» يجوز فيها ، إلى جانب الخفض ، الرفعُ على تقدير «ذهبت مع محمدٍ ، الذى هو الكريم» ، وكذلك النصب على تقدير «ذهبت مع محمدٍ ، أعنى الكريم لا غيره» ، أو إذا قلنا له إن كلمة «خَرِب» فى العبارة المشهورة : «هذا جُحْرٌ ضَبٌّ خَرِبٌ» يجوز رفعها نعتاً لـ «جُحْر» ، وهو الأصل ، كما يجوز خفضها لمجاورتها كلمة «ضَبٌّ» المجرورة ، أو إذا قلنا له إنه يجوز فى الجملة التالية : «ولم يكن لهم من رأس مال غير جدِّهم واعتمادهم على أنفسهم» رفع كلمة «غير» ونصبها وجراً ؟ صحيح أننا الآن نميل إلى إجراء إعراب واحد فى كثير من هذه الحالات ، لكن الأسلوب القديم الأصيل يتمتع بمرونة تفتقدها أساليبنا الحديثة التى تُراعَى فيها القواعد العامة عادة . أيا ما يكن الأمر فلا ينبغى للجهلة أن يستطيخوا بجهلهم على القرآن الكريم .

١٠ - أما ما أقدم عليه هذا الطائش من تخطئة قوله تعالى فى الآية العاشرة من سورة «هود» : «وَلَكِنْ أَذْنَاهُ نَعْمَاءٌ مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ نَسِيتُ لَيَقُولُنَّ : ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » فهو فضيحة الدهر ، إذ معناه أنه

لا يُلَمَّ حتى بالقواعد الأولية التي يعرفها تلميذ المرحلة الابتدائية .
 قال ، فضَّ الله فاه : « كان يجب أن يجرَّ المضاف إليه فيقول : بعد
 ضراءٍ مسته » (ص ١٠٨) . والحمد لله أن عرف هذا المنكوس أن
 « ضراءٍ » مضاف إليه ، أما ظنه بأن جرَّها يستلزم وضع كسرة (واحدة)
 تحت آخر حروفها فمما يضحك المكروب ، إذ معناه أولاً أنه لم يسمع
 بأن المنوع من الصرف لا يُجرَّ بالكسر بل بالفتح (بفتحة واحدة) .
 هذه واحدة ، والثانية أن الكلمات التي تُجرَّ بالكسر لا بد أن توضع
 تحت آخر حروفها كسرتان لا كسرة واحدة ، لأن الكسرة الواحدة هي
 علامة بناء لا إعراب .

* * *

١١ - وفي قوله تعالى في الآية ٨٠ من سورة «البقرة» حكايةً
 لمزاعم اليهود وأما نبيهم الباطلة من أنهم ، لكونهم أبناء الله وأحباءه ،
 لن تمسهم النار بسبب ذنوبهم «إلا أياماً معدودة» يقول العبد
 الفاضل : « كان يجب أن يجمعها (أى يجمع كلمة «معدودة»)
 جمع قلة حيث إنهم أرادوا القلة فيقول : أياماً معدودات »
 (ص ١٠٨) . والسؤال هو : وهل عرف هذا الجهول على وجه اليقين
 عدد الأيام التي سمكتها اليهود حسب اعتقادهم في النار قبل أن

يتكلم عن أى التعبيرين أصلح لها من الآخر ؟ ثم هناك سؤال ثانٍ : ترى من قال له إن أحد التعبيرين يدل على القلة ، والآخر على الكثرة ؟ إن الدلالة على القلة ناشئة من أن الأيام التى سيقضونها فى النار أيام يمكن عدّها بسهولة ، قصيغة المفعول من «عَدَّ» هى فى ذاتها الدالة على القلة بغض النظر عن إفرادها أو جمعها . ولقد وردت هذه العبارة ذاتها ، وعلى لسان اليهود أيضاً ، فى موضع آخر من القرآن ، مع استبدال كلمة «معدودات» بـ «معدودة»^(١) بما يدل على صحة ما قلت . كما أن معظم المفسرين الذين رجعتُ إليهم قد ذكروا أن كلتا الصيغتين فصيحة دون أن يسيروا إلى وجود أى فرق بينهما . مفسر واحد منهم فقط ذكر أن وصف الجمع غير العاقل بصيغة المفرد المؤنث يدل على الكثرة ، بعكس صيغة جمع الألف والتاء ، فى مقابل مفسر آخر ذكر العكس .

والملاحظ أن دلالة الجمع على القلة أو الكثرة ليست من الأمور الحاسمة أو المطردة بل من المسائل التغليبية . ووجه عام فإن صيغة جمع التكسير باستثناء «أَفْعُلْ وأَفْعَالْ وأَفْعِلْ وفِعْلَةٌ» تدل على الكثرة ، على العكس من هذه الصيغ الأربع وصيغة جمع المؤنث السالم ، وإن

(١) آل عمران / ٢٤ .

لم يمنع هذا أن يحدث العكس ، والأمثلة على هذا وذاك معروفة . أما كون أيام اليهود في النار «معدودة» أو «معدودات» فدلالة القلة فيها ناشئة من أن تلك الأيام يسهل عدّها لا من صيغة الإفراد أو الجمع . ولا معنى إذن لهذا الذي صدّع به الجهول أدمعتنا .

ومن الممكن جدا أن يكون القرآن الكريم قد أورد في الموضعين المشار إليهما كلام اليهود بنصه ، إذ لعلهم كانوا تارة يستعملون صيغة المفرد المؤنث ، وتارة صيغة جمع المؤنث السالم ، فحكى القرآن أقوالهم في كل مرة كما هي . كذلك من الممكن أن تكون «أياما معدودات» هنا معناها «أياما معينة» كما في قوله عز شأنه عن الصيام إنه كُتِبَ على المسلمين «أياما معدودات» ، أي محددات هي أيام شهر رمضان ، وذلك واضح من ذكر شهر رمضان عقب ذلك . أيا ما يكن الأمر فإن المسمى «عبد القاضى» يهرف بما لا يعرف ، ولقد ظلمه الذين لقنوه هذه التفاهات فانطلق في غباء يسردها سردا . وعلى أية حال فهذا هو ذى عبارة «أيام معدودات» يستعملها الكتاب المقدس عند هذا الفاضى وأمثاله في غير جمع القلة بالمعنى الذى يفهمه : «الحياة الصالحة أيام معدودات»^(١) . ذلك أن الحياة الصالحة ، مهما

(١) يشوع بن سراج / ٤١ / ١٦ .

قصرت ، لا يمكن أن تكون أيامًا قليلة إلى هذا الحد. أما في القول التالي المنسوب لأيوب فإنه يصف سنوات حياته بأنها «معدودة» ، وسنوات حياة الشخص أقل في العدد من أيامها بكل يقين ، وبخاصة أن أيوب قالها وهو مريض ، أى بعد أن قطع شوطا طويلا من عمره . قال : «فإن سنواتي المعدودة تنقضى فأركب طريقا لا أعود منه»^(١) . فما رأى صوّحِبنا الأحق في هذين الاستعماليين اللذين بهجريان يعكس ما يدعى في صيغتي «معدودة» و «معدودات» ؟

* * *

١٢ - وهنا نصل إلى الاعتراض الثانى عشر الذى يقول فيه البيهقء إن عبارة « أياما معدودات » فى قوله تعالى فى الآيتين ١٨٣ - ١٨٤ من سورة «البقرة» : «يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات ... » كان ينبغى أن تُغَيَّر إلى «أيامًا معدودة» على أساس أن رمضان ثلاثون يوما ، والثلاثون ليست بالعدد القليل . وقد سبق فى الرد السابق أن قَدَدنا هذا السخف ونسفناه نسفا ، وقلنا إن «أياما معدودات» هنا لا تعنى القلة أو الكثرة بل تعنى أنها أيام محدَّدة هى

(١) أيوب ٦ / ٢٢ .

أيام شهر ومضان من كل عام . وهو نفس المعنى فى قوله تعالى :
«وما تؤخره إلا لأجل معدودة»^(١)، وقوله : «ولكن أخرنا عنهم العذاب
إلى أمة معدودة (أى إلى وقت محدّد) ليقولنّ : ما يحبسّه ؟»^(٢) .
و«الأجل» و«الأمة» معناها «الميقات»، والميقات لا يُعدّ، وإنما يحدّد .

* * *

١٣ - يستكر عبد الفاضى استخدام القرآن الكريم لصيغة
«إلياسين» (بدل «إلياس») فى قوله عز شأنه فى الآية ١٣٠ من
«الصافات» : «وإنّ إليّاس لمن المرسلين * ... * سلامٌ على إلياسين» ،
وكذلك صيغة «سينين» (بدل «سيناء») فى قوله سبحانه فى الآية
الثانية من سورة «التين» : «وطور سينين» قائلا إن الصيغتين
المذكورتين هما صيغتا الجمع من «إلياس» و«سيناء» ، «فمن الخطأ
لغويا تغيير اسم العَلَم حَبّا فى السجع المتكلف» (ص ١٠٩) . والواقع
أن الأمر أبسط من هذا كله ، إذ معروف أن الأعلام حين تنتقل من
لغة إلى لغة أخرى تمرّوها عادة تحويرات فى حروفها وضبطها ونبرها
كما فى «برحنا» مثلا ، الذى حوِّره اللسان العربى فصار «بحى» .

(١) هود / ١٠٤ .

(٢) هود / ٨ .

وقد يغدو للعالم أكثر من نطق قى اللغة التى انتقل إليها كما هو الحال عندنا بالنسبة لـ «أرسطو» و «أرسطوطاليس» و «أرسطاليس»، و «أهلوارد» و «آلوارد» و «آلفرت» (وهو اسم مستشرق ألماني معروف)، و «جيراثيل» و «جيراثيل» و «جيريل» و «جيرين» و «غيريال». ومعروف أيضاً أن لاسم النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى اللغة الإنجليزية مثلاً كذا صيغة مثل «Mahomet» و «Mahound» و «Muhammed» و «Muhammad». وفى ضوء هذا فإن من السهل الإشارة إلى أن العرب ينطقون اسم شبه الجزيرة التى تقع فى شمال شرق مصر بعدة صور: «سيناء» و «سيناء» و «سيناء» و «سينين» و «سينين»^(١). والشئ ذاته يقال فى اسم النبى الكريم الذى نحن بصدده، إذ يقولون: «إلياس» و «إيليس» و «إلياسين». وقد اختار

(١) هذا الجاهل لا يعرف أن أى عربى، مهما كانت معرفته بلفظه قاصرة، لا يمكن أن يجمع «سيناء» جمع مذكر سالماً لأنه اسم علم على مكان لا على شخص. وحتى إن غرضنا الطرف من علم جواز جمعه جمع مذكر سالماً فإنه إن جُمع هذا الجمع كان جمعه على «سيناتين» لا على «سينين». ومن الواضح أن الجاهل لا يفرق بين القرآن وبين ذلك للمستشرق الذى كان يظن أن «الزيتون» هو جمع المذكر السالم من «زيت»، فكان يقول: «الزيتون» (فى حالة الرفع)، و «الزيتين» (فى حالتى النصب والجاء)!

القرآن الكريم فى كل من الموضوعين اللذين نحن بصددهما الصيغة التى تناسب السياق محافظةً منه على الإيقاع الموسيقى ، أما فى غير ذلك فقد استخدم الصيغة الأشيع ، وهى «سَيِّئاً»^(١) و «إِلياس»^(٢) ، فليس فى الأمر جمع ولا تكلف سجع ولا يحزنون .

ومثل «إِلياس» فى ذلك اسم حَمِي موسى ، الذى ورد فى بعض الترجمات العربية للكتاب المقدس «يُثرو» ، وفى بعضها الآخر «يثرون» ، فهل نقول مثلما قال هذا الأحقق إن «يثرون» هى جمع مذكر سالم لـ «يثرو» ؟ إننا أعقل من ذلك . لكن الأدعى أن يتكرر فى الكتاب المقدس لدى اليهود والنصارى ذكر الشخص الواحد بعدة أسماء مختلفة كتسمية حَمِي موسى هذا : «رعوثيل» مرة ، و«يثرون» مرة أخرى ، و«حوباب بن رعوثيل» مرة ثالثة^(٣) . وفى سفر «أخبار الأيام الأول» أسماء أعلام تخالف لفظ الأسماء المذكورة فى غيره من أسفار الكتاب المقدس . وقد حاول شراح ذلك الكتاب بطريقتهم البهلوانية تفسير هذه الظاهرة المضحكة بأن اللفظ قد تغير على مرّ

(١) فى الآية ٢٠ من سورة «المؤمنون» .

(٢) فى الآية ٨٥ من «الأنعام» ، والآية ١٢٣ من «الصافات» .

(٣) انظر «خروج» / ١ / ٣ ، و ١٨ / ٤ ، و ١٨ / ١ ، و ٢ ، و ٥ ، و ٦ ، و ٩ ، و ١٠ ،

١٢ ، وعدد / ١٠ / ٢٩ ، وقضاة / ٤ / ١١ .

السنين ، أو أنه كان للشخص الواحد عدة أسماء ، أو أن الأمر مجرد ألقاظ مترادفة^(١) . فهذه هي المصيبة حقا ، أما الوقوف عند «إلياس» و «إلياسين» فهو تنطع فارغ . وفي نهاية المطاف ألفت نظره ، إن كان عنده نظر ، إلى التناقض الرهيب في اسم عيسى عليه السلام بين سفر «نبوءة أشعيا» وبين إنجيلي متى ولوقا ، إذ جاء في «أشعيا» (١٤/٧) ، و (٦/٩ - ٧) أن العذراء ستلد لله ابنا وتسميه «عمانوئيل» ، بينما في «متى» (٢١/١) أنها ستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع ، وهو نفسه ما جاء على لسان جبريل عليه السلام حسب رواية «لوقا» (٣/١) ، وإن انتكس الكلام عنده عقيب ذلك إذ يعود فيقول : «هذا كله لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل : هو ذا العذراء تحمل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل ، الذي تفسيره : الله معنا» . وبطبيعة الحال لم يُسمَّ المسيح عليه السلام يوما «عمانوئيل» .

* * *

١٤ - كذلك يعترض المتنطع على استخدام الآية ١٧٧ من سورة «البقرة» لكلمة «البر» وصفاً لـ «من آمن بالله واليوم الآخر...» على

(١) انظر مثلا الحواشي الملحقه بآخر «المعهد العتيق» في ترجمة الكتاب المقدس الكاثوليكية (دار المشرق / بيروت / ١٩٨٦ م / ص ١٢ / نهر ٢ / التعليق على الفقرة الثالثة من الفصل الأول من «سفر أخبار الأيام الأول»).

النحو التالي : « ليس البرُّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرُّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وأتى المال على حبه ... » ، مؤكداً أنه كان يجب أن يقال : « ولكن البرُّ هو الإيمان بالله واليوم الآخر ... » لأن البرُّ هو الإيمان لا المؤمن كما قال (ص ١٠٩) . وهذه أيضاً من الأمارات على جهله الشنيع بلغة الضاد ، فمن الواضح أنه لا يعرف شيئاً اسمه استخدام المصدر صفةً مثل : « رَجُلٌ عَدْلٌ » ، وامرأةٌ صِدْقٌ » بما يوحي أنهما قد بلغا الغاية في العدل والصدق بعد أن أضحيا هما العدل والصدق ذاته . ومن شواهد هذا الاستعمال في الشعر العربي قول الشاعر القديم : « فإنما هي إقبال وإدبار » . ومثله في الكتاب المقدس عند المتنطع وأشباهه : « وكانت الأرض كلها لغةً واحدة وكلاماً واحداً »^(١) ، وكان ينبغي ، بناءً على فهم هذا المأقون ، أن يقال : « وكان سكان الأرض كلهم يستعملون لغة واحدة وكلاماً واحداً » . ومثله أيضاً : « كانتا (أى زوجتا عيسو بن إسحاق) مرارة نفس لإسحاق ورفقة »^(٢) . ومثله : « هو (أى الرب) قَحْرُك »^(٣) ، والمفروض ، حسب كلام الغني ، أن يقال : « هو سبب

(١) تكوين / ١١ / ١ .

(٢) تكوين / ٢٦ / ٣٥ .

(٣) تثنية الاشتراع / ١٠ / ٣١ .

فخرك . ومثله قول يواب لأبشاي أخيه : «إِنْ قَوِيَ عَلَى الْأَرَامِيِّونَ
تَكُونُ أَنْتَ نَجْدَةً»^(١) . ومثله : «صُنَاعُ التَّمَائِيلِ كُلُّهُمْ بَاطِلٌ»^(٢) ،
وكان يجب ، طبقاً لتقطع صُوِّحِينَا ، أَنْ يُقَالَ : «صُنَاعُ التَّمَائِيلِ
كُلُّهُمْ مَبْطُلُونَ» . ومثله : «وَتَخْلِفُونَ أَسْمَكُمْ لَعْنَةً لِمُخْتَارِي»^(٣) ، حيث
اِسْتُخْدِمَتِ «اللَعْنَةُ» وصفاً رغم أنها مصدر مثل «البر» . ومثله :
«فَيَكُونُونَ سُبَّةً وَدَهْشَةً وَلَعْنَةً وَعَارًا»^(٤) . ومثله : «سُبُّهُ (أَي سِبَالِ اللَّهِ)
عَدْلٌ»^(٥) . وبعد فأرجو أن يكون ذلك الأحق قد تعلم الدرس ، وإن
كنت أرتاب في هذا .

ونحن الآن كثيراً ما نقول مثلاً : «فلان هو الوفاء مجسماً»
و«فلانة هي الفتنة تمشي على قدمين» أو «هي الظرف كله» ، وهو
قريب مما جاء في الآية الكريمة . وهناك توجيهات أخرى للآية لا
داعى لسوقها ، ففيما قلناه غنية . وقد تكرر هذا الاستعمال في
السورة ذاتها بعد اثنتي عشرة آية ، وذلك في قوله تعالى : «وليس البر
بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى» . ومن غير المعقول

(١) أخبار الأهم الأول / ١٩ / ١٢ .

(٢) نبوة أشعيا / ٤٤ / ٦ .

(٣) نبوة أشعيا / ٦٥ / ١٥ .

(٤) نبوة إرميا / ٤٢ / ١٨ .

(٥) نبوة دانيال / ٥ / ٣٤ .

أن يكون صاحب القرآن من الضعف في اللغة بحيث يتكرر منه هذا الخطأ في تلك المسافة القصيرة أو أن يكون العرب من كافرين ومسلمين من الجاهل بحيث لا يتنبهون لذلك الخطأ أو يكون المشركون والمنافقون واليهود والنصارى من المجاملة لمحمد بحيث يصمتون أمام هذا الغلط ولا يخرجونه ويشتعنون به في الآفاق .

ولزيادة الفائدة نضيف أن الصفة في هذه الحالة تلزم عادة صيغة الإفراد والتذكير فنقول : «رجلٌ عدلٌ ، وامرأةٌ عدلٌ ، ورجلان عدلٌ ، وامرأتان عدلٌ ، ورجالٌ عدلٌ ، ونساءٌ عدلٌ» ، وإن سُمِعَ أحيانا «رجالٌ عدولٌ» . وقس على ذلك «رجلٌ صدقٌ ، وامرأةٌ صدقٌ ، ورجلان صدقٌ ، وامرأتان صدقٌ ، ورجالٌ صدقٌ ، ونساءٌ صدقٌ» ... وهلم جرا . وفي النهاية نسوق الشاهد التالي من الكتاب المقدس عند صوبحنا الجاهل حيث يوصف المسيح عليه السلام بأنه «برٌّ» ، بالضبط كما في الآية الكريمة التي لا تعجب المتنتع : «المسيح يسوع ، الذي صار لنا من الله حكمة وبراً وقداً وفداء»^(١) ، وكذلك هذا الشاهد الذي يقول فيه بولس : «لكي نصير نحن برّاً الله فيه»^(٢) . وهذان الشاهدان هما الضربة القاضية لذلك المتنتع ومن سلطوه على

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتس / ١ / ٣٠ .

(٢) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنتس / ٥ / ٢١ .

هلاكه! وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر فنجب أن نذكر هنا بأسماء
الأعلام التي هي قى الأصل مصادر ، مثل : «وفاء ، ونجاح ، ورضا ،
وإنعام ، وإيمان ، وجهاد ، وسلامة ، وعز ، وإقبال ، وبركة ، وهمس ،
وهديل ... إلخ» .

* * *

١٥ - ونصل الآن إلى الاعتراض الخامس عشر فنجد أنفسنا لا نزال
مع الآية السابقة ، حيث يزعم صوريحتنا أنه كان يجب أن يقال :
«ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ... وآتى المال على حبه ذوى
القربى ... وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ،
والصابرون فى البأساء والضراء وحين البأس» بدلا من «والصابرين» ،
لأن «الصابرين» عنده معطوفة على «الموفون بعهدهم» ، والمعطوف
على المرفوع لا بد أن يكون مرفوعا مثله «ص ١٠٩» . وقد تقدم فى
الرد على الشبهة التاسعة تفنيد مثل هذا السخف ، إذ قلنا إن النصب
فى مثل هذه الحالة يدل على مزيد من الاهتمام بصاحب الاسم
المنسوب على سبيل المدح ، ولا داعى لإيراد التفاصيل التى أوردها
هناك .

* * *

١٦ - وفى قوله تعالى فى الآية ٥٩ من سورة «آل عمران» : «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ. خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ» ، يعترض عبد الفاضى مؤكداً أنه «كان يجب أن يُعتبر المقام الذى يقتضى صيغة الماضى لا المضارع فيقول : قال له : كُنْ ، فكان» (ص ١١٠). ورواضح أنه ، لجهله وحرمانه من المقدرة على تذوق الأساليب الأدبية الرائعة وما تتميز به من مفاجأة القارئ أو السامع فى كثير من الأحيان بما يهزّه ويوقظه ويخرجه من النزعة الآلية التى تستولى علينا من كثرة ما نرى الأمور تجري على وتيرتها المعهودة ، يظن أنه لا يوجد إلا طريقة واحدة فى التعبير عن كل معنى. وهذه طفولية لغوية وأدبية ، وإلا فكيف فاته أن عبارة «كن ، فيكون» ، وإن استعملت هنا فى الكلام عن خلق آدم فى الماضى ، فإنها تمثل مبدأ عاماً لا يتقيد بزمن ، فأُبقيت من قَمَّ على حالها التى وردت بها فى المواضع الأخرى من القرآن الكريم ، وكلها تقريبا مما لا يتقيد بزمن دون زمن^(١). فهذه نكتة بلاغية رهيبة لا يقدر على التقاطها بلداء الذهن والذوق. ثم هناك نكتة بلاغية أخرى مثلها رهاقة بحيث لا يستطيع سَمِيكَ العقل والوجدان أن يتنبه إليها ، ألا وهى أن

(١) وهذه المواضع هى : البقرة / ١١٧ ، وآل عمران / ٤٧ ، والنحل / ٤٠ ، ومريم /

٣٥ ، هود / ٨٢ ، وغافر / ٦٨ .

الحديث فى الآية ، وإن كان عن آدم أبى البشر ، فإنه يصدق كذلك على أبناء آدم فى المستقبل ، فاستخدم القرآن لهذا السبب صيغة المضارعة التى تدل على الاستمرار والديمومة^(١) . ترى أفهم الجهول أم نعيد الكلام من جديد ؟ وهناك نصيحة تقول : لا تَلْقُوا بالدرر أمام الخنازير ! وما إلى الخنازير قَصَدْنَا بكتابة ردنا هذا ، ولكننا وضعناه لطيبى النية ممن توسوس الثعالب فى آذانهم ، وذلك كى يأخذوا حذرهم فلا ينخدعوا بهملاسة الجلد عن نار الحقد المستمرة فى قلوب هذه الثعالب الفتاكة . ومن أمثلة عطف المضارع على الماضى فى الشعر الجاهلى قول تأبط شراً يصف عراكه مع الغول :

بأنى قد لقيتُ الغولَ تسمى بهُتٍ كالصحيقة صحصحانِ
فأخذه فأضربها فخرتُ صريعاً لليدين وللجيرانِ

ثم نختم هذا الدرس بسوق هذين الشاهدين المشابهين من

(١) يمد كتابى هذا الكلام بمدة كنت ألقب بالمصادفة فى كتاب المستشرق الفرنسى بلاشير « Grammaire de l'Arabe Classique » فوجدته يقول فى تفسير استعمال المضارع فى هذه الآية ما ترجمته : « قال (لآدم) : كن فيكون » ، أى قبل أن يكون مستمر فى الحياة . ذلك أن استخدام الماضى هنا إنما يفترض واقعة حدثت وانتهى الأمر دون أن تكون هناك فكرة الاستمرارية » (G. P. Maisonneuve et Larose, Paris, 1952 , P. 254) .

الكتاب المقدس عند الضالّ التعميس : جاء فى سفر « نبوءة أشعيا »
(٦ / ٩ - ١٠) عن رب العزة : « قال : انطلق وقل لهذا الشعب (أى
بنى إسرائيل) : اسمعوا سماعا ولا تفهموا ، وانظروا نظراً ولا تعرفوا .
غَلَطَ قَلْبُ هَذَا الشَّعْبِ وَلَقَلَّ أُذُنُهُ وَأَغْمَضَ عَيْنُهُ لئلا يبصر بعينه
ويسمع بأذنيه ويفهم بقلبه فيرجع فيُشْفَى » . ويرى شراح الكتاب
المقدس أن فى الكلام هنا مجازاً حيث تكرر استخدام صيغة الأمر فى
الكلام على حين أن المقصود هو المضارع الدال على المستقبل ،
بمعنى أن بنى إسرائيل سيسمعون ولكن لن يفهموا ، سينظرون
ولكن لن يروا . وقد حوّل يوحنا فى إنجيله (٣٩ / ١٢ - ٤٠) الزمن
فى هذه الأفعال إلى الماضى وجعل الفاعل هو الله تعالى : « لأن
أشعيا قال أيضاً : أعمى (أى الله) عيونهم وقسّى قلوبهم لئلا يبصروا
يعيّنهم ولا يفهموا بقلوبهم » . ومثل ذلك ما جاء فى مفتتح الفصل
الثانى عشر من سفر « الأحبار » : « أية امرأة حبّلت فولدت ذكراً فلتكن
نجسة سبعة أيام ... فإن ولدت أنثى فلتكن نجسة أسبوعين » ، حيث
استُخدمت « لام الأمر » مع المضارع بدلا من استخدام المضارع المجرد
من اللام رغم أن الكلام هنا خبر لا طلب .

١٧ - وفى قوله تعالى فى الآية ١٥ من «يوسف» عن إخوته عليه السلام وعزمهم على التخلص منه حتى يخلو لهم وجه أبيهم : « فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه : لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون » يؤكد الأخرق أن فى الجملة خطأ لأنها تخلو من جواب «لولا» ، وأنه «لو حذفت الواو التى قبل «أوحينا» لاستقام المعنى» (ص ١١٠). ولا بد من التنبيه أولا إلى أن القرآن يكثر فيه الحذف ، فهو سمة من سمات لغته أفاض فيها علماء القرآن والنحو والبلاغة ، وهذا الحذف موجود أيضاً بكثرة فى الشعر العربى القديم أيام كان العرب يستعملون لغتهم بتلقائية الواثق القابض على عنانها يصرفها حسبما تشاء مراميه البلاغية . فهذه الآية إذن ليست يدعاً فى القرآن ، وهذا إن قلنا بالحذف ، وهو مجرد رأى من الآراء التى وجهت بها الآية . والحذف هنا ، عند من يقول به ، غرضه التشويق وإثارة تطلع القارئ للتفكير فى المراد من الآية . وما زلنا حتى الآن نقول فى أحاديثنا مثلاً : « آه لِمَا جاء أبوه ورأى ما صنع ! » ، فهل سمع أحدهم قط من يعترض على مثل هذا الأسلوب ويتهمه بالنقص ؟ ومن شواهد هذا الاستعمال فى الشعر العربى القديم قول امرئ القيس عن إحدى مغامراته العاطفية مع حبيبته :

فلما أجزنا ساحة الحى واتحى بنا بطن خبت ذى حَقَابٍ عَقَنَلِ

حيث انتهت جملة «لحمًا» مع نهاية البيت دون أن يظهر لها جواب .
وبهذا الحذف يريد امرؤ القيس إثارة خيال السامع لينطلق فيتصور على
هواه كل ما يمكن أن يكون قد وقع بينه وبين حبيته .

وفي الكتاب المقدس عند العبد الفاضل نقرأ مثلاً : «وتدم بنو
إسرائيل على بنيامين إخوتهم»^(١) ، و «بنيامين» (المبدل منه) فرد ،
والبديل «إخوتهم» جمع ، فهل نملأ الدنيا صراخاً بأن هذا خطأ كما
فعل جاهلنا ؟ إننا نقول إن ههنا حذفاً ، وتقدير الكلام : «وتدم بنو
إسرائيل على بنى بنيامين» . ومن الحذف أيضاً فى ذلك الكتاب :
«لأنى مررت بحقل الكسلان وبكرم الإنسان الفاقد اللب» ، فإذا الشوك
قد علاه ، والعضاء غطى وجهه ، وجدار حجارتة قد انهزم . فنظرت
فوعيت فى قلبى ، ورأيت فاستفدت تأدياً . قليل من الوسن . قليل
من الرقاد . طىّ الهدين قليلاً للرقاد»^(٢) ، فهذه ثلاث جمل غير
كاملة . أفنقول إنها خطأ ؟ أهدا . وتقدير العبارة هو : «يكفى جداً
قليل من الوسن» أو «قليل من الوسن كافٍ جداً» ... وهكذا . وفى
ذلك الكتاب أيضاً نقرأ العبارة التالية : «ألم يعلم جميع فاعلى الإنم

(١) قضاة / ٢١ / ٦ .

(٢) أمثال / ٢٤ / ٣٠ - ٣٣ .

الذين يأكلون شعبي أَكَلَ الخبز ولم يدعوا الرب ؟ هناك جزعوا جزعا
حيث ليس جزع لأن الله في جيل الصديقين^(١). وعبثا نحاول أن
نجد في النص مفعول «ألم يعلم...؟». وقد تركه المتحدث عمدا ليثير
خيال السامعين ويهول لهم ما يهدد تحذيرهم منه . والمراد مثلا : «ألم
يعلموا ما ينتظرهم من جزع ورعب وعقاب لا يُردّ؟».

على أن هناك من يقول إنه لا حذف في الآية القرآنية وإن جواب
«لَمَّا» موجود في قوله سبحانه : «قالوا : يا أيها...» بعدها بآيتين
على النحو التالي : «فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة
الجُبِّ ، وأوحينا إليه : لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاؤوا
آباهم عشاءً يكون * قالوا : يا أيها ، إنا ذهبنا نَسْتَبِقُ وتركنا يوسف
عند متاعنا فأكله الذئب ...». وثم توجيهات أخرى ترجع إليها في
كتب التفسير وإعراب القرآن وما إليها .

* * *

١٨ - ويمضى صوب حينا الأحمق في لججاته قائلا إن التركيب
في الآية التاسعة من سورة «الفتح» يؤدي إلى اضطراب المعنى .

(١) مزامير / ١٣ / ٤ - ٥ .

وها نحن أولاء نورد أولاً الآية المذكورة والتي قبلها ليتابعنا القارئ فيما نقول . قال تعالى : «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً» . وشبهة الأخمق تقول إن هناك «اضطراباً في المعنى بسبب الالتفات من خطاب محمد إلى خطاب غيره ، ولأن الضمير في «تعزروه وتوقروه» عائداً على الرسول المذكور آخرًا ، وفي قوله : «تسبحوه» عائداً على اسم الجلالة المذكور أولاً . هذا ما يقتضيه المعنى ، وليس في اللفظ ما يعينه تعييناً يزيل اللبس . فإن كان القول : «تعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً» عائداً على الرسول يكون كفراً لأن التسبيح لله فقط ، وإن كان القول : «تعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً» عائداً على الله يكون كفراً لأنه تعالى لا يحتاج لمن يعزّره ويقوّيه » (ص ١١٠) . ورداً على هذا السخف الذي لُقّنهُ هذا الببغاء تلقيناً فأداه كما قيل له دون أن يفقه منه شيئاً نقول : أما الالتفات من «كاف الخطاب» لـ «واو» المخاطبين فلست أدري ماذا فيه . إن رب العزة المتعال يخاطب رسوله قائلاً : «إنا أرسلناك (يا رسول الله) شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا (أنت وسائر العباد) بالله ورسوله ... إلخ» ، فماذا في هذا الكلام مما يصعب فهمه ؟ يؤمن للعقول السخنة والأفواه المنتنة !

وأما المشكلة التي يريد أن يخلقها خلقا في قوله عز من قائل :
«لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُؤْفِقُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بِكُورٍ وَأَصِيلًا» فلا
وجود لها إلا في ذهنه المخبول . بالله لم لا يكون التعزيز والتوقير
والتسبيح جميعا لله عز وجل ؟ ما الذي في ذلك مما لا يناسبه سبحانه
ويوقع القتال به في الكفر ؟ إن الله جلَّت قدرته ليس في حاجة فعلا
إلى أية مساعدة أو عون من أحد ، بيد أن الكلام في الآية إنما هو
على المجاز مثل قوله في الآية السابعة من سورة «محمد» : «يا أيها
الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وقوله في الآية
١٧ من «التغابن» : «إن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم ويغفر
لكم» وغير ذلك . ومغزى المجاز في الآية التي بين أيدينا هو زيادة
الحض على الاستمسك بعروة الإسلام ونصرة مبادئه والجهاد دفاعا
عنه والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس ، وهو أسلوب من الكلام
يراد به استفزاز أقصى طاقات المخاطب واستنفار كل ما تجيش به نفسه
من عزم ، إذ متى ما قيل للمؤمن إنك ، بعملك كيت وكيت ، إنما
تنصر الله نفسه ، فإنه يهبط يجمع طاقته وعزمته لتحقيق ما تطلبه
منه . كذلك فهذا الأسلوب يشعر المؤمن بأنه شديد القرب من ربه ،
ويجمل حبل المودة بينه وبين مولاه قويا متينا . ولقد أثمر هذا

الأسلوب ثمرته فرأينا المسلمين يسترخصون كل شيء في سبيل نصرة دينهم ورسوله ، بخلاف غيرهم ممن أسلموا نبينهم وفروا من حوله فأخذ يصرخ (كما جاء في كتبهم التي لا تصدقها) مستنجدا بالسماء على خير جدوى ! وفي هذا بلاغ ، ولا داعي للإفاضة ! وأما بالنسبة للتوقيع فتستشهد عليه بما جاء في الآية ١٣ من سورة «نوح» خطاباً من هذا النبي الكريم لمشركي قومه : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ » . لا مشكلة إذن في الآية كما هو واضح ، بل المشكلة في الذهن المأفون !

١٩ - وبالمثل يخلق أحققنا برعونته مشكلة أخرى لا وجود لها إلا في عقله ، إذ يقول إن « سلاسل » و « قوارير » في الآيتين ٤ ، ١٥ من « الإنسان » : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسلًا وأغلالاً وسعيراً » و « يطاف عليهم بآنية من فضة » ، وأكواب كانت قواريراً قد نوتنا رغم أنهما ممنوعتان من الصرف أي أن في الآيتين خطأ نحويًا (ص ١١٠ - ١١١) . وصواب القول إن هاتين الكلمتين في المصحف الذي بين أيدينا غير منوتتين . كل ما في الأمر أنهما كتبتا بالألف ، ومعروف أن إملاء المصحف يختلف عن إملائنا الحالي بمض الاختلاف .

ولكن حتى لو نَوَّنتا ، وهناك قراءة تنونهما فعلا ، فليس فى تنوينهما من بأس ، إذ من العرب قديما من كان يتَوَّن الأسماء كلها ما عدا «أفعل التفضيل» . صحيح أننا الآن لا نَتَوَّن أشياء كثيرة من بينها ما كان من الجمع على وزن «مَفاعل» و «مفاعيل» ، لكن هذا لا يعدو أن يكون جانبا واحدا من المسألة ، أما الجانب الآخر فهو أن المنع من الصرف لم يكن لغة كل العرب بل غالبيتهم فقط . ونحن نميل حاليا إلى التزام القواعد العامة وترك اللهجات القبلية التى لا تجرى مع هذه القواعد . إلا أن هذا شىء ، والمسارة بجهل إلى تخطئة أصحاب اللغة الأصلاء الذين منهم أخذنا قواعدنا ولهاهم نحتذى فشىء آخر . فليكن الجهلاء على بينة من هذا حتى لا يَضِلُّوا ويَضِلُّوا ! والشواهد الشعرية على صَرَف ما تعودنا على منعه من الصرف كثيرة فى النصوص القديمة ، والأمرفيه ليس أمر ضرورة شعرية فقط كما قد يُظَنّ ، بل هو لغة من لغات العرب كالمنع من الصرف سواء بسواء .



٢٠ - هذا ، وقد سبق أن وصَّحنا ، فى الرد على الشبهة الثالثة ، السرَّ فى تذكير كلمة «قريب» فى قوله تعالى : «إن رحمة الله قريب

من المحسنين ، بما يغنيننا عن إعادة القول هنا رداً على الشبهة العشرين
التي تورد آية أخرى توجد فيها الظاهرة اللغوية نفسها هي الآية ١٧
من «الشورى» ، ونصها : «وما يدريك ؟ لعل الساعة قريب» .

* * *

٢١ - ويأخذ المتنطع الفارغ العقل على قوله جلّ من قاتل في
الآية ١٩٦ من سورة «البقرة» عمّن تمتّع بالعمرة إلى الحج ولم يتيسر
له شراء هدي : «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا
رجعتم تلك عشرة كاملة» أن كلمة «كاملة» لا لزوم لها لأنها
توضح ما لا يحتاج إلى توضيح ، وإلا فمن ذا الذى يظن العشرة
تسعة ؟ (ص ١١١) . وهذا تنطع بلغ الغاية فى السُخف والتفاهة . إن
المتنطع التافه لا يعجبه العجب : فإذا رأى حذفاً قال : لماذا كان هناك
حذف ؟ وإذا رأى توكيداً قال : لا داعى له ... وهكذا . وأذكر أنى
كنت قبل نحو عشرين سنة أسمع أغنية نجاة الصغيرة التى تسأل فيها
فتاةً حبيبها عما جعله يتنبه إلى حبّها له : أهو قلبه أحسّ بها فجاربها
حباً بحب ؟ أم كثرة الشوق الذى أطلّ من عينيها ؟ أم ... ؟ أم ... ؟
أم الحنان الذى كان فى «سلام يدها اليمين»^(١) ؟ فتساءلتُ

(١) أى فى مصافحتها إياه يدها اليمنى .

ضاحكا : وهل هناك «سلام» بغير اليد اليمنى حتى تحتاج الفتاة إلى تأكيد ذلك ؟ ثم عدتُ أنظر في العبارة من جديد فوجدتُ الحسن كله في هذا التحديد الذي قد يبدو للعجلين أنه زيادة لا ضرورة لها ، لأن هذه الكلمة قد حوِّلت « السلام » من معنًى مجردٍ إلى واقعةٍ حيةٍ يصورها الذهن ويرى فيها اليد مشتبكة باليد تصافحها وتبشها الحنان . وكذلك الحال هنا ، فقد تحولت العبارة بكلمة « كاملة » من مسألة حسابية مجردة إلى واقعة حية . ولا تنس أن العرب في الجاهلية لم يكونوا من علوم الحساب في شيء ، فكان لا بد من التأكيد ليعرفوا أن رقم العشرة هنا رقم كامل لا عدد تقريبي ، وهذا كقول النابغة الذبياني مثلا :

قالت: ألا لَيْتَمَا هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نعطه ، فَقَدِ
فحسبوه فألفسوه كما حَسَبَتْ تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزدِ
وقوله أيضا :

أسائل عن سَعْدَى وقد مرَّ بعدنا على عرصات الدار سبع كواملٍ
وحتى في العصر العباسي نجد الجاحظ مثلا يقول إن بعض الشعراء الجاهليين كانوا يقضون في تنقيح قصيدتهم وصقلها «حولاً كريئاً» ، أي عاما كاملا لا ينقص يوما واحدا . وكذلك نحن الآن بعد كل هذا التقدم الهائل في الحساب والرياضيات لا يزال الواحد منا يقول

لمدينه مثلاً : « أريد منك ألف الجنيه التي اقترضتها منى كاملة لا تنقص مليماً واحداً » أو « لا بد أن تدفع الخمسمائة جنيه والسبعة عشر قرشاً التي اشتريت بها بضاعة منى » ، والسبعة عشر قرشاً قبل الخمسمائة جنيه . وبالمثل نقول : « رأيت بعينى ، وسمعت بأذنى » رغم أن الرؤية لا تكون إلا بالعين ، ولا السمع إلا بالأذن . وقد فات الجاهل القدم أن الكلام لا يمكن أن يجرى دائماً على وقيرة آلية واحدة فى كل الأحوال والسياقات ، بل لا بد من تنوعات ومفاجآت تُعَبِّثُه وتجعله جديداً أخضر ، وإلا فيستطيع أى منتطح أن يعترض مثلاً على ما جاء فى الفقرة ٢٣ من الفصل التاسع والعشرين من سفر « الخروج » ، إذ يأمر الله هارون أن يأخذ إلى المذبح « رغيفاً واحداً من الخبز وجردقة واحدة من الخبز » ، ويتساءل : « ولم وُصِفَ كل من الرغيف والجردقة بأنه واحد ، والرغيف لا يكون إلا رغيفاً واحداً لا نصف رغيف ولا رغيفين ولا ثلاثة ، ومثله الجردقة ؟ أليس هذا مزيداً فى الكلام لا جدوى منه ؟ » . هذا ما يقوله المنتطح الأملط العقل مثل « عبد الفاضى » ، أما العقلاء فإنهم يحترمون أنفسهم ولا يعترضون . ومثل ذلك ما جاء فى الفقرة الأخيرة من الفصل السادس عشر من سفر « الأحبار » من قول كاتب السفر : « مرة واحدة فى السنة » ، وكذلك قوله فى آخر الفصل العشرين عن العراف : « فليقتل

قتلا بالحجارة» ، الذى يمكن أن يتحاشى فيه أى جهول فيقول :
«وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يُقْتَلَ الْإِنْسَانُ أَى شَيْءٍ آخَرَ غَيْرَ الْقَتْلِ ؟ فَلَمَّا ذَا قِيلَ
إِذَنْ : «فَلْيُقْتَلْ قَتْلًا» وَلَمْ يُقَلْ : «فَلْيُقْتَلْ» فَقَطْ ؟ وَبِالْمَثَلِ يَسْتَطِيعُ أَى
بَلِيدٌ جَاهِلٌ أَنْ يَتَسَاءَلَ عَنِ السَّرَفِ فِي جَمْعِ السَّبُوتِ فِي الْأَعْوَامِ السَّبْعَةِ
فِي آخِرِ الْعِبَارَةِ التَّالِيَةِ بَعْدَ أَنْ عُرِفَ أَنَّ الْمُدَّةَ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ فِي كُلِّ
سَنَةٍ مِنْهَا سَبْعَةُ سُبُوتٍ : «وَاحْسِبْ لَكَ سَبْعَةَ سُبُوتٍ مِنَ السَّنِينَ سَبْعَ
سِنِينَ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَتَكُونُ لَكَ أَيَّامُ السَّبُوتِ السَّبْعَةِ تِسْعًا وَأَرْبَعِينَ
سَنَةً»^(١) قَائِلًا : «وَهَلْ يَكُونُ حَاصِلُ ضَرْبِ ٧ فِي ٧ إِلَّا ٤٩؟» . ثُمَّ مَا
هَذِهِ الْعُشْكَلَةُ فِي قَوْلِهِ : «سَبْعَةُ سُبُوتٍ مِنَ السَّنِينَ سَبْعَ سِنِينَ سَبْعَ
مَرَّاتٍ» الَّتِي تَوْحَى بِأَنَّ مُؤَلِّفَ الْكِتَابِ كَتَبَهُ وَهُوَ سُكْرَانٌ أَوْ مَرَهَقٌ يَرِيدُ
أَنْ يَنَامَ ؟ وَمِثْلُ ذَلِكَ أَيْضًا مَا جَاءَ فِي الْآيَةِ ٢٤ مِنَ الْفَصْلِ الثَّامِنِ مِنْ
سُفَرِ «يَشُوعَ» : «وَسَقَطُوا جَمِيعَهُمْ بِحَدِّ السَّيْفِ عَنْ آخِرِهِمْ» مَعَ أَنَّهُ
كَانَ يَكْفَى ، بِنَاءً عَلَى رَأْيِ الْمُتَنَطِّعِ الْجَهُولِ ، أَنْ يُقَالَ : «وَسَقَطُوا
بِحَدِّ السَّيْفِ» . وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُؤَلِّفِ «نُبُوَّةِ زَكَرِيَّا» عَلَى لِسَانِ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ : «فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ الْحَادِي عَشَرَ الَّذِي هُوَ
شِبَاطُ»^(٢) ، إِذْ يَقْدِرُ أَى تَرْقِيٍّ مِنْ طِينَةِ الْمَدْعُورِ عَبْدِ الْفِيَاضِيِّ أَنْ يَقُولَ

(١) أخبار / ٢٥ / ٨ .

(٢) نبوة زكريا / ١ / ٧ .

مستنكرا : « وهل يمكن أن يكون الشهر الحادى عشر شيئا آخر غير شباط ؟ » . ومثله أيضاً عبارة « مدة يوم كامل »^(١) ، حيث وُصِفَ « اليوم » بأنه « كامل » ، ومعروف أن « اليوم » لا يمكن أن يكون إلا يوما كاملا لا ثلاثة أرباع يوم أو أربعة أخماسه أو خمسة أسداسه مثلاً ؟ ومثله عبارة : « ومن كلِّ حى من كل ذى جسد اثنين من كل » ، حيث كرر عبارة « من كل » ثلاث مرات دون داع .

* * *

٢٢ - ومن « عشرة كاملة » إلى لغة « أكلونى البراغيث » كما يسميها النحلة . ذلك أن الجاهل المتغشمر يظن بعقله الضيق أن هناك غلطة نحوية فى قوله تعالى فى الآية ٣ من « الأنبياء » : « وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشرٌ مثلكم ؟ » ، إذ يزعم أن الصواب يقتضى حذف « الواو » من « أسروا » فيكون الكلام : « وأسرو النجوى الذين ظلموا » (ص ١١١) . وهذا اعتراض يدل على تفاهة عقله ، ذلك أن الآية تخلو تماما مما يمكن أن يؤخذ عليها ، فالتركيب تركيب عربى سليم مائة فى المائة ، ولو كان فيه أدنى شيء ما سكنت عليه العرب . أما إذا أردنا توجيهه فنحن بالخيار : فإما أن

يكون تقدير الكلام : «أسرّوا النجوى» ، (أعنى) الذين ظلموا : هل هذا إلا بشرٌ مثلكم ؟ ، وإما أن يبقى الكلام على حاله دون تقدير ، وتكون «واو الجماعة» فى «أسرّوا» حرفاً يدل على جمع الذكور (لا فاعلاً) كما تدل التاء فى «أقبلتُ فاطمة» على المفردة المؤنثة ، أو تكون «واو الجماعة» هى الفاعل ، و «الذين ظلموا» بدلاً منها .

وعلى أية حال فقد وردت شواهد على هذا التركيب فى الشعر العربى القديم . يقول عروة بن الورد :

وأحقرهم وأهونهم عليه وإن كانا له نسبٌ وخيرٌ
ويقول أحيحة بن الجلاح :

يلوموننى فى اشتراء النخيد لـ أهلى ، فكلهم يعذلُ
ويقول عمرو بن ملقظ :

ألقيتُ عيناك عند القفا أولى فأولى لك ذا واقية
ويقول محمد بن عبد الله العتبي :

ولئن الفوائى الشيبُ لاح بعارضى فأعرضن عني بالحدود النواضير
ومثله الشاهد التالى :

ألا يا اسلما يا دمتى أم مالك ولا يسلما بعدىكما طللان

وكذلك هذا الشاهد :

لصروك لومي فاعتززت بنصرهم ولو انهم غلظوك كنت ذليلاً

ثم هذا الشاهد :

نُسِيَا حاتم وأوس لَدُنْ فَا ضَتَّ عطاياك يا ابن عبد العزيز

ثم هذا الشاهد أيضاً :

فأدركنه عمالته فَخَلَّته ألا إن عرق السوء لا يهد مُدْرِكُ

ثم هذا الشاهد لأبي فراس الحمداني :

نتج الربيع محاسناً أَلْقَحَنه غُرُ السحابِ

ثم هذا الشاهد لأحد شعراء « اليتيمة » :

إلى أن رأيتُ النجم وهو مغربٌ وأقبلنَ راياتُ الصباح من

٢٣ - والأخر يعيب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى في الآية ٢١ من « يونس » : « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجريّن بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دَعَوْا الله مخلصين له الدين : ... » ، قائلاً إن الالتفات قد حدث قبل

تمام المعنى ، ، والأصح أن يستمر على خطاب المخاطب ،
(ص ١١١) . وهذا يعنى أن ذلك الجاهل يقيم من نفسه معيارا للصحة
اللغوية والدق البلاغى الرهيف ، وهو الذى رأيناه يخطئ الأخطاء
الفاحشة فى أوليات النحو . أليس ذلك من دواهى الزمن ؟ من أين
لهذا الجاهل (الذى لو كان الأمر بيدي لعهدت به إلى مدرس
خصوصى وأوصيته أن يقوم عوجه وبلادته بالخيزرانة) من أين له أن
الالتفات لا ينبغى أن يستعمل إلا إذا انتهت الجملة وبدأت جملة
أخرى ؟ لذلك لن أرد على هذا السخف وسأكتفى بإظهار المغزى
البلاغى والنفسى لهذا الالتفات ، والواقع أن فى هذا الأسلوب تعبيراً
عن الإعراض عن المخاطبين فى الآية وإظهاراً للزراية والإنكار عليهم ،
فما أكثر ما يولى الواحد منا صفحة أو ظهراً لمن لا يريد أن يستمر فى
الحديث معه احتقاراً له أو سخفاً عليه وما إلى ذلك ، فهذا من ذاك .

وهناك شواهد على ذلك الأسلوب من الكتاب المقدس عند
صوبحنا ، مثل قول إخوة يوسف لفرعون : « جئنا لتتزل بأرضك ، إذ
ليس لعبيدك مرعى من اشتداد الجوع فى أرض كنعان ، فليقيم
عبيدك بأرض جاسان »^(١) ، حيث تم الالتفات من جماعة المتكلمين

(١) تكوين / ٤٧ / ٤ .

إلى جماعة الغائبين قبل تمام المعنى . ومثله قول بنى إسرائيل
فى ابتهاهم لربهم : « قد خطفنا إليك وتركنا إلهنا وعبيدنا
البعليم »^(١)، حيث تحول الكلام من المخاطب فى « إليك » إلى
الغائب فى الاسم الظاهر « إلهنا » . ومثله قول يهوديت : « الرب
يمحق الحروب ... جعل معسكره فى وسط شعبه لينقذنا من أيدي
جميع أعدائنا »^(٢)، حيث انتقل الحديث من الغائب المفرد فى
« شعبه » إلى جماعة المتكلمين عقب ذلك مباشرة فى « لينقذنا ...
أعدائنا »، وذلك قبل تمام الجملة . ومثله أيضاً هذا القول المنسوب
للسيد المسيح عليه السلام يخاطب تلاميذه : « إنكم أنتم الذين
تبعتمونى فى جبل التجديد . متى جلس ابن البشر على كرسى مجده
تجلسون أنتم أيضاً على اثنى عشر كرسيًا وتدينون أسباط بنى إسرائيل
الاثنى عشر »^(٣)، حيث تغير الاتجاه من ضمير المتكلم فى « تبعتمونى »
إلى الغيبة فى قوله : « ابن البشر » . ومثله كذلك قول بولس إلى أهل
أفسس : « حين كنا أمواتا بالزلات أحياناً مع المسيح لأنكم بالنعمة
مخلصون . وأقامنا معه وأجلسنا معه فى السماويات فى المسيح

(١) قضاة / ١٠ / ١٠ .

(٢) يهوديت / ١٦ / ٣ - ٤ .

(٣) متى / ١٩ / ٢٨ .

يسوع^(١)، حيث تحوّل الضمير من جماعة المتكلمين في « كُنَّا » إلى جماعة المخاطبين في « لَكُمْ » ثم عاد ثانية إلى جماعة المتكلمين، وذلك كله قبل أن يتم المعنى ، فماذا يقول العبد الفاضل في هذا ؟ وهناك أمثلة أخرى أكثر من الهم على القلب !

٢٤ - كذلك يستغرب جاهلنا أن القرآن لم يقل في الآية ٦٢ من سورة « التوبة » : « واللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُمَا » بدلا من « واللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ » ، فيثنى الضمير العائد على الاثنين : « الله ورسوله » بدلا من إفراده . وهو يعد ذلك خطأ (ص ١١١) .
والحق أن هذا أسلوب عربي مصمم ليس فيه شيء إلا عند الأفهام الخربة والأذواق العظيمة ، وذلك كقول قيس بن الخطيم :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مختلفٌ

وقول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـود ما لم يُعاصَ كان جنونا
وأضيفُ إلى ذلك أن هذا الأسلوب لم يقتصر وروده في القرآن الكريم على هذه الآية وحدها بل يجدد القارئ أيضا في قوله تعالى مثلا في

(١) رسالة القديس بطرس إلى أهل أنفس / ٢ / ٥ - ٦ .

الآية ٣٤ من «التوبة» عن الأحبار والرهبان : «الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» ، وقوله جلت قدرته في الآية ١١ من سورة «الجمعة» مخاطبا رسوله عليه السلام بشأن بعض المسلمين ممن تركوا خطبة الجمعة عند ورود قافلة التجارة التي كانوا ينتظرونها : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها . ومغزى أفراد الضمير في الآية التي اعترض عليها الجاهل هو أن رضا الرسول متضمن في رضا الله لأنه عليه السلام إنما ينطق عن وحى السماء . وفي هذا تنبيه إلى أن رضا صلى الله عليه وسلم من الأهمية بمكان ، فكان الذى يعصيه ويُغضبه قد عصى الله ذاته وأغضبه .

* * *

٢٥ - ونأتى إلى آخر الشُّبِّ الموجودة فى فصل الكتاب الخامس المسمى «أسئلة لغوية» ، وهى تتعلق بجمع كلمة «قلب» فى قوله عز شأنه يخاطب عائشة وحفصة رضى الله عنهما وأرضاها حينما زادت غيرتهما على رسول الله إلى الحد الذى ضايقه : «إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما» ، إذ يتساءل هذا العبقري : «لماذا لم يقل : «صغا قلوبكما» بدل «صغت قلوبكما» ، إذ إنه ليس للثنتين أكثر من قلبين ؟» (ص ١١٢) . ما كل هذه العبقرية ؟ لقد اكتشف نيافته ما

لم يكشفه أحد من الأولين والآخرين فعرف أن للإنسان قلبا واحدا لا قلبين أو أكثر . وأنا أحبيبه على هذا الاكتشاف وأنبه من يقولون : « هذه الفتاة عيونها جميلة ، وخطودها أسيلة ، وأنداقها كالرمان ، وأردافها كالكتبان ، وسيقانها لا أدرى ماذا »^(١) إلى أن عليهم من الآن فصاعدا ألا يستخدموا صيغة الجمع هنا بل يستعملوا بدلا منها صيغة المثني . خيبة الله على كل تافه جهول ا ترى ماذا نفعل مع الشعراء والأدباء ، وهم منذ خلقهم الله يميلون في كثير من الأحيان إلى التوسع في مثل هذه التعبيرات ؟ يقول الأعشى مثلا :

إِذَا تَقَرَّمُ بِضُرْعِ الْمِسْكِ أَصْوَرَةً وَالزَّبَقِ الْوَرْدِ مِنْ أَرْدَانِهَا شَمِلُ
فجمع « الأردن » مع أن لها رُدْنين (أى كُمتين) اثنين فقط . ويقول قيس بن الخطيم :

كَأَنَّ لَبَانَهَا تَضُمُّنَهَا هَزَلَى جَرَادٍ اجْوَاذَهُ جُلْفُ
واللَّبَّة : أوسط الصدر والمنحر ، والمرأة لبة واحدة لا لَبَات . ويقول السُّلَيْكُ بن السُّلَكَةِ :

كَأَنَّ مَجَامِعَ الْأَرْدَافِ مِنْهَا نَقَى دَرَجَتُ عَلَيْهِ الرِّيحُ هَارَا

(١) وأحيانا ما يحدث العكس وتُستخدَم صيغة المفرد فنقول : « خدُّها أسيل ، وطرْفُها كحيل ، وردنها ثَقيل » .

وللمرأة ودفان اثنان ، لكن الشاعر استخدم صيغة الجمع . ويقول
بشامة بن الغدير في ناقتة :

كَأَن يَدَيْهَا إِذَا أَرْقَلَتْ وَقَدْ جُرْنَ لَمْ اهْتَدِينَ السَّبِيلَا

يبدأ غانم خَرَفِي غَمْرَةً قَدْ ادْرَكَهُ الْمَوْتُ إِلَّا قَلِيلَا

حيث جعل الضمير العائد على « اليدين » ضمير جمع ، وهو نون
النسوة . وعلى العكس من ذلك يقول امرؤ القيس : « ففاضت دموع
العين متى صباية » رغم أنه بكى بعينيه الاثنتين لا بعين واحدة .
ويقول بشر بن أبي خازم في حبيبته إنها « وَا الْمَعْصَم » مع أن لها
معصمين اثنين لا معصما واحدا . وبالمثل يصف عمرو بن كلثوم
امراة فيقول إنها « تُرِيكَ ... ثَدْيًا مِثْلَ حَقِّ الْعَاجِ » بدلا من « ثديين » .
كما يقول بشامة إن من ينظر إلى ناقتة يرى لها « بَدْءَ سُرْحَاءٍ » بصيغة
المفرد ... إلخ ، وهو كثير . ثم ماذا نقول لتوفيق الحكيم ، وقد ألف
مسرحة عنوانها « الأبدى الناعمة » تتحدث عن رجل أرستقراطي لا
يحب أن يشتغل يديه كبقية خلق الله ، لكن الحكيم جعل له
« أَيْدِيًا » لا « يدين » ؟ وماذا نقول أيضا لمحمود تيمور ، الذي سمى
قصة من قصصه : « شفاء غليظة » رغم أنه إنما يقصد شفتي فتاة
واحدة ليس إلا ؟ أنقول لهما : أخطأت يا توفيق الحكيم أنت

ومحمود تيمور ، فاذهبوا وتوبا على يد الجاهل المتنطع حتى يكتب
لكما صكَّ غفران تفضمنان به دخول الجنة^(١) ؟

إن اللغة يا عبد الفاضى بخرها طام ، والعيال من أمثالك عليهم
أن يقفوا على الشاطئ بعيدا عن أمواجه حتى لا يجرفهم التيار . ألم
تسمع مثلا من يقول إن « الخطيب الفلانى ألقى كلمة مؤثرة أمس »
مع أنه قد تلفظ فى خطبته بألاف الكلمات ؟ ألم يأتك أحد أقرباتك
أو أصدقائك ليقترض منك « قرشين » ، وهو فى الواقع يريد ألف جنيه
مثلا ، وربما ألافاً ؟ وفى الإنجليزية كثيرا ما نسمع الصديق يقول
لصديقه ، بعد غيابه عنه شهراً مثلاً ، إنه لم يره « منذ دهور : for
ages » . وهذا كله من باب التوسع اللغوى ، وفيه من البلاغة ما
يسهر الألباب . ووجه استعمال « القلوب » فى الآية الكريمة ، حسبما
أتصور ، هو أن القرآن المجيد يريد لأُمِّي المؤمنين ، رضى الله عنهم ،
أن تصغروا بكل خلجات قلوبهما إلى الحق ، فكأن الآية قد استعملت
« القلوب » بمعنى المشاعر والخواطر .

والآن إلى شواهد من الكتاب المقدس عند العبد الفاضى على هذا

(١) أم ترانا يبنى أن تقول : « وتوبا على يديه حتى يكتب لكما صكَّ غفران
تفضمنان بهما دخول الجنة » لإضاء للعين النفى ؟

الاستعمال . خذ مثلاً : « إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر ، وخطيئتهم قد عظمتُ جداً » ، حيث أضيفت كلمة «خطيئة» إلى ضمير جمع الذكور ، وكان ينبغي ، بناءً على مزاعم العبد الفاضل ، أن يقال : « وخطاياهما » . وخذ ثانياً : « وهكذا كانوا يجلبون على يدهم لجميع ملوك الحثيين وملوك آرام »^(١) ، وكان يجب ، طبقاً لفتوى الأخرق ، أن يقال : « على أيديهم » ، إذ إنهم جماعة لا فرد ، فلهم أيدي متعددة لا يد واحدة . وخذ أيضاً : « خذك كفلة رمانة »^(٢) ، والمفروض ، حسبما يقول المتنطع ، أن يقال : « خذاك كفلقتي رمانة » . وخذ رابعاً : « لئلاك مثل العناقيد » ، وكان ينبغي ، بناءً على فهمه الكلبي ، أن يقال : « لئلاك مثل عتقودين »^(٣) . ثم خذ خامساً هذا الشاهد الذي يشبه بالضغط ما عابه تلك البلبد : « وجعلوا لِسُورَةَ في أيديهما وناج فخر على أروسهما »^(٤) ، إذ قيل : « لأروسهما » بدل « رأسيهما » . ومثله الشاهد التالي : « إن شاء أحد أن يضربهما تخرج

(١) تكوين / ١٨ / ٢٠ .

(٢) نشيد الأناشيد / ٤ / ٣ ، و ٦ / ٦ .

(٣) نشيد الأناشيد / ٧ / ٨ (عزتين) .

(٤) تهودة حزقيال / ٢٣ / ٤٢ .

النار من أفواههما^(١). أليس ينبغي بعد هذا أن يخرس كل سمج
وذيل ؟

وهناك شبهات لغوية أخرى أوردها هذا الشقيّ في مواضع أخرى
من كتابه منها قوله : « جاء في فوائح ٢٩ سورة بالقرآن حروف
عاطلة لا يُفهم معناها » (يقصد الحروف المقطعة التي في أوائل بعض
السور كالبقرة والحجر والشورى) ، ثم يختم كلامه متسائلاً : « إن
كانت هذه الحروف لا يعلمها إلا الله كما يقولون ، فما فائدتها لنا ؟
إن الله لا يوحى إلا بما يفيد ، فكلام الله بلاغ وبيان وهدى للناس »
(ص ١٧٥) .

وبادئ ذي بدء أسارع فأقول : أوليس هذا الكون الهائل من
صنع الله أيضاً ؟ فهل كل شيء فيه مفهوم وواضح للبشر ؟ بل هل
كل شيء على الأرض وحدها مفهوم لنا وواضح ؟ بل هل كل شيء
فى جسم الإنسان فقط مفهوم وواضح له ؟ أما ما يُفهم من قوله إن
المسلمين يرون ألا سبيل إلى معرفة معنى هذه الحروف فهذا كلام
بعض العلماء فقط ، لكن هناك فريقاً آخر يرى أن المقصود بها تنبيه

(١) وفي القديس يوحنا / ١١ / ٥ .

المعاندن إلى أن القرآن مؤلف من هذه الحروف وأمثالها ، ومع ذلك لا يستطيع أى بشر أن يأتي بمثله ولا بسورة منه . ونحن إذا ما قرأنا الآية التى تلى هذه الحروف فى كل سورة تقريرا وجدنا أن هذا تفسير جِدَّ وجيه ، كقوله تعالى مثلا : « ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه ، (البقرة) ، « ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » (الحجر) ، « حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » (فصلت) ، « حم * عسق * كذلك يُوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئله العزيز الحكيم » (الشورى) ، إذ المعنى فى الشاهد الأخير على سبيل المثال أنه من هذه الحروف وأشباهاها (وهذا معنى قوله سبحانه : « كذلك ») « يُوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » . وقس على ذلك السور الباقية ، وإن لم يأت التعبير فيها جميعا على هذا النحو المباشر بل يتنوع من سورة إلى أخرى . أما السورتان أو الثلاث التى لا يوجد فى أولها مثل هذه الإشارة ، ففى الكلام فيها حذف كالحذف الذى يقابلنا فى كثير من آيات القرآن الكريم جريا على سنة العرب وغير العرب فى لغاتهم .

وللمفسرين آراء أخرى فى تفسير هذه الحروف : منها مثلا أنها أسماء للسور التى تبتدى بها . ومن هذا أننا ، عندما كنا صغارا نحفظ القرآن فى الكتاب ، كنا نقول مثلا : لقد وصل فلان فى

حفظه للقرآن إلى « الحواميم » ، وبعض العلماء يقولون إنها اختصار
لأسماء الله ، وبعضهم يقول : بل هي اختصار لصفاته تعالى ، فإذا
أخذنا « أَلَمْ » مثلاً فإن « الألف » تشير إلى « آلاء الله » ، و « اللام »
إلى « لطفه » و « الميم » إلى « مجده وملكه » ... وهكذا . ومع أن
الاتجاه الحديث في التفسير بوجه عام لا يأخذ بهذا الرأي فإنه ، رغم
كل شيء ، أوجه من ذلك التفسير البهلواني الذي يدعى كاتب سفر
« نبوة دانيال » في العهد القديم أن دانيال قد فسر به حلم الملك
البابلي حين رأى في منامه كتابة مرسومة ليس لها معنى هذا نصّها :
« مَنَا مَنَا تَقَلْ وَفَرَسَيْن » ، إذ قال له : « مَنَا أَى أَحصى الله ملكك
وأنهاء . تَقَلْ ، أَى وَزِنْتَ فى الميزان فَوُجِدْتَ ناقصاً . فَرَسٌ ، أَى
قُسِمَتْ مملكتك ودَفِعَتْ إلى مَادَاى وفارس » . ترى أيمكن أن يدخل
فى رُوح أحد أن يهودياً متفياً فى مملكة ذلك العاهل يمكن أن يجبهه
بهذا الكلام الفظيع ؟ وأدهى من ذلك وأطم أن يدعى كاتب السفر
أن الملك ، من إعجابه بهذا التفسير ، قد ألبسه الأرجوان وطوّق عنقه
بالذهب ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ، إذ لو صحت الرواية لما كان
رد فعل الملك شيئاً آخر غير تطيير رقبة ذلك اليهودى بالسيف فى التوّ
واللحظة ! على أن المسرحية لمّا تكتمل فصولاً ، إذ تمضى فتقول
إن الملك البابلي قد قُتِل فى الليلة ذاتها وانتقل ملكه فعلاً إلى الملك

داريوس المادى^(١).

يُبد أن الباحثين فى العقود الأخيرة قد توصّلوا ، عن طريق استخدام الحاسوب ، إلى مغزى إضافى لورود هذه الحروف فى أوائل السور ، إذ وجدوا أن كل حرف منها هو أكثر الحروف دورانا فى سورته ، أما إذا كان هناك حرفان أو أكثر فإن تردّد أولها يكون أكبر عددا من تردد الثانى ، وهذا أكبر عددا من تردد الثالث ... وهكذا . ولا تزال الأيام المقبلة حُبلى بالكثير من هذه الاكتشافات الخاصة بالحروف والأرقام . ومن العلماء من وجد تناغما مذهلاً بين أعداد المرات التى تتكرر فيها الألفاظ المتقابلة كالجنة والنار ، والإنس والجن ، وما إلى ذلك مما يجد القارئ شيئا منه فى بحوث المرحوم عبد الرازق نوفل عن الإعجاز العددي فى القرآن الكريم .

ثم إن الذى يقرأ كلام ذلك الأحق يقظن أن كتابهم المقدس قد خلا من الألفاظ التى حيرت مفسريهم رغم أن أسلوبهم فى تفسير كتبهم يقتدر إلى الانضباط والمنهجية ويتسع لكل شىء ولأى شىء . ولن أذكر للبيغاء إلا مثالا واحدا هو كلمة «سِلاه» التى وردت فى «مزامير داود» ٦٣ مرة ، وثلاثا فى «نبوءة حبقوق» ، والتى تختلف

(١) نبوءة دانيال / ٥ من أوله إلى آخره ، وبخاصة الفقرة ٣٥ وما يليها .

مفسروهم فى شرحها اختلافا شديدا وما زالوا رغم أنهم ، كما قلت ،
لا يتقيدون بمنهج فى تفسيرهم .

وأخيراً قد يكون من المفيد أن نشير إلى الطريقة التى شكّل بها
هذا اللعين الحروف المقطعة فى أوائل السور ، فقد ضبط كل حرف
فيها بالفتحة (هكذا : أَلَمْ ، مَلَسَ ، حَمَّ * عَمَقَ ... إلخ) مع أن
الصواب هو نطق كل منها كما ينطق فى الأبجدية منفردا . فانظر أيها
القارئ إلى مدى جهل هذا الأحمق الذى يتصدى لنور الله بنفخة
من فمه الممتن يظن أنه يقدر أن يطفئه بها !

ومن اعتراضاته الحمقاء قوله : « كيف يكون القرآن عربيا مبينا
وبه كلمات أعجمية كثيرة من فارسية وأشورية وسريانية وعبرية ويونانية
ومصرية وحشية وغيرها » . وقد أتبع هذا السؤال الصبباني بقائمة
من الألفاظ التى يقال إنها أعجمية (ص ١٧٥ - ١٧٧) .

وقيل أن أبين ما فى كلام هذا الأحمق من سخفٍ جاهلٍ أشير
إلى وجهات نظر علمائنا القدامى فى هذه المسألة : فبعضهم يقول إن
هذه الألفاظ المنسوبة إلى اللغات الأعجمية هى أيضاً ألفاظ عربية ،
وقد وردت هنا وهناك من باب الاتفاق وتوارد الخواطر . وهذا رأى

يقول به الطبري والرازي وكثير من العلماء . وقد كنت أستغرب في البداية هذا الكلام ، إلى أن تنبّهت إلى أن كثيرا من هذه الألفاظ منسوب لهذه اللغة السامية أو تلك إلى جانب العربية ، فمن الطبيعي إذن أن تكون موجودة في لغتنا وفي تلك اللغات في ذات الوقت لأنها كلها منحدرة من أم واحدة هي اللغة السامية ، مثلما توجد ألفاظ كثيرة مشتركة بين اللغات المتفرعة من اللاتينية . وهناك رأى آخر مفاده أن هذه الألفاظ الأعجمية قليلة لا يُعتدّ بها ولا تُخرج القرآن من ثم من عرويته . وهذا القول منسوب إلى ابن عباس وعكرمة وغيرهما . أما الرأى الثالث فيتلخص في أن العرب قد علّقت هذه الألفاظ في أثناء سفرها إلى البلاد المجاورة ، لكنهم عربوها ، أى أعطوها شكلا عربيا حتى جرت مجرى العربى الصريح . ومن أصحاب هذا الرأى أبو القاسم عبيد بن سلام^(١) .

وكعادتي في التسليم بما يقول صويحنا سوف أفترض أن كل هذه الألفاظ هي فعلا ألفاظ أعجمية ، فهل هذا يُخرج القرآن عن

(١) ينظر في ذلك السيوطي / المزهري في علوم اللغة وأنواعها / تحقيق جاد المولى والجارى وأبو الفضل لإبراهيم / مكتبة عيسى البابي الحلبي / ١٩٥٨م / ٢٦٧ - ٢٦٩ ، ود. عبد القادر حسين / من علوم القرآن وتحليل نصوصه / دار قطري بن الفجاءة / الدوحة / ١٩٨٧م / ٤٢ - ٤٣ .

عرويته ؟ أبداً لأنه ما من لغة من اللغات إلا وفيها ألفاظ كثيرة جداً من اللغات الأخرى . بل إن اللغة العالمية الأولى في عصرنا الحالي ، وهي الإنجليزية ، مفعمة بألف الألفاظ والعبارات المأخوذة بنصها من اللاتينية والفرنسية والعربية والألمانية والفرنسية واليونانية . وفي الإسبانية ، وهي أيضاً إحدى اللغات العالمية ، عدد هائل جداً من الكلمات العربية ، ولا يقدح ذلك في إسبانيته . وقل مثل ذلك في الفارسية والتركية والسواحلية والأوردية ، ولم يدع أحد أن هذه اللغات قد فقدت هويتها بسبب ما غزاها من جيوش الألفاظ والعبارات العربية . إن الظن بأن هناك لغة نقية من الألفاظ الأجنبية هو كالظن بأن هناك جنساً من الأجسام البشرية لم تخالط دماء أية دماء أجنبية قط ، وهو ظنٌ طقوليٌّ لا يقول به إلا أحمق متنطع كصاحبنا^(١) . والعبرة على كل حال بقواعد اللغة وتراكيبها وطرائقها الخاصة بها في التعبير والتصوير وما إلى ذلك^(٢) . ولنفترض أن هذه الألفاظ بما

(١) انظر ، في تبادل المفردات بين اللغات ، على سبيل المثال د. علي عبد الواحد واقي / علم اللغة / ط ٩ / دار نهضة مصر / ٢٥٢ - ٢٥٦ .

(٢) وانظر رأي يعقوب صروف (النصراني) في هذه المسألة في رسالته التي بحث بها إلى المجمع العلمي العربي بدمشق يدافع عن خطته في تحريب الألفاظ الأصحمة وعلم اللجوء إلى ترجمتها في بعض الأحيان (المجلد ٧٤ من «المقتطف» / ص ٨٨) .

يُخْرِجُ الْقُرْآنَ عَنْ عَرَبِيَّتِهِ ، فَإِلَى آيَةٍ جَنْسِيَّةٍ يَأْتِرَى نَتْسِبُهُ ؟ ثُمَّ إِنْ الْكُتَابُ الْمُقَدَّسُ عِنْدَ هَذَا الْأَحْيَمِ وَأَشْبَاهُهُ تَتَدَاخَلُ فِيهِ لُغَاتُ شَتَّى كَمَا هُوَ مُعْرُوفٌ ، فَلِمَاذَا يَثِيرُ هَذِهِ الشَّبَهَةُ إِذَنْ ؟ بَلْ لِمَاذَا لَا يَثِيرُهَا إِلَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْقُرْآنِ وَلَمْ يَثْرِهَا بِالنِّسْبَةِ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا ؟ أَمْ إِنْ أَقَاعَى حَقُّهُ هُوَ وَمَنْ وَرَاءَهُ لَا تَهْيِجُ إِلَّا عَلَى الْقُرْآنِ قَطْعٌ ؟

وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى افْتِرَاضٍ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ كُلِّهَا فَعَلًا أَلْفَاظٌ أَعْجَمِيَّةٌ . وَلَقَدْ أَثْبَتُ فِي كِتَابِي «دَائِرَةُ الْمَعَارِفِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْاِسْتِشْرَاقِيَّةِ - أَضَالِيلُ وَأَبَاطِيلُ» أَنَّ مُعْظَمَ مَا يَقُولُ الْمُسْتَشْرِقُونَ وَالْمُبَشِّرُونَ إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ قَدْ اسْتَعَارَتْهُ مِنَ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ الْآخَرَى هُوَ زَعْمٌ بَاطِلٌ^(١) . كَمَا أَنَّ أَحَدَ تَلَامِذْنِي الَّذِينَ دَرَسُوا مَعِيَ لِلْحَصُولِ عَلَى دَرَجَةِ الدَّكْتُورِيَّةِ قَدْ انْتَهَى فِي بَحْثِهِ إِلَى أَنَّ الْأَغْلَبِيَّةَ السَّاحِقَةَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُقْبُولِ بِأَعْجَمِيَّتِهَا هِيَ الْأَلْفَاظُ عَرَبِيَّةٌ أَصِيلَةٌ^(٢) . وَقَدْ ارْتَكَبَ فِي دِرَاسَتِهِ هَذِهِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ يَبْعُضُ اللُّغَاتِ السَّامِيَّةِ وَرَجَعَ إِلَى كُلِّ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُؤَلَّفَاتٍ مِنْ كُتُبِهِمَا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنْ عَرَبٍ وَمُسْتَشْرِقِينَ .

(١) انْظُرِ الْفَصْلَ الْمُسَمَّى «الْمَسَائِلُ اللُّغَوِيَّةُ» مِنَ الْكِتَابِ الْمَذْكُورِ / مَكْتَبَةُ الْبَلَدِ الْأَسْمِينِ /

الْقَاهِرَةُ / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م / ١٨٧ - ٢١١ .

(٢) وَهُوَ د . وَحِيدٌ صَفِيَّةُ الْمَدْرَسِ بِجَامِعَةِ تَشْرِينَ بِاللَّاذِقِيَّةِ .

وعلى كل حال ففي الكتاب المقدس عند المتنوع الجهول ألفاظ من لغات شتى ، إلا أنه لما تمت ترجمته إلى لغة الضاد أصبحت هذه الألفاظ عربية . ومع هذا ففي الترجمة نفسها ألفاظ كثيرة أبقاها المترجمون كما هي ولم يترجموها إلى العربية ، مثل « الكرويون ، والأفود ، والإيفة ، والبعليم ، والترافيم ، والفور ، والفوريم ، والسروفون ، والبهموت ، وماران أنا ، وسلا ، والكثارة ، والمهندس ، واللوايثان ، ومنا منا قفل وفرسين ، والتورا ، والإنجيل ، والآب ، وهلوليا ، وهوشعنا ، وإيلي إيلي لعمّا شيبقتنى ، والكرازة ، ورايى ، ورايونى ، وبوصنا ، وأناثيما ... إلخ » .

* * *

وتحت عنوان « الكلام المتكرر » ، وهو أحد عناوين الفصل التاسع المسمى « أسئلة فنية » ، يقول صويحبنا إن « بالقرآن الكثير من التكرار اللفظي كما فى سورة « الرحمن » (يقصد تكرار قوله تعالى مخاطبا الإنس والجن : « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » بعد كل آية أو آيتين بدءاً من الآية ١٢) ، أو التكرار المعنوى كما فى قصص الأنبياء ، ثم يختم كلامه بالسؤال التالى : « أليس فى هذا التكرار عيب الخلخل والملل والبعد عن ضرور البلاغة ؟ » (ص ١٨٤ - ١٨٥) .

ولن أحاجّ هذا الأعمى البصر والبصيرة إلا بأن هذا الذى

يستنهجه في القرآن موجود على نطاق أوسع وأشد بما لا يقاس في كتابهم المقدس ، فالملل الذي يصيب قارئ الجزء الأخير من سفر « الخروج » وكل أسفار « الأخبار » و « العدد » و « الاشتراع » وأوائل « أخبار الأيام الأول » أمر لا يطاق . إنه يصل إلى حد الغثيان والدوار وزغللة العين : فمن سلاسل أنساب وأسماء أشخاص ومواقع تتابع وتتداخل وبأخذ بعضها برقاب بعض ، إلى تفصيلات تفصيلات التفصيلات ، إلى حوادث يتكرر ذكرها ، وعهود يعاد صوغها ... إلخ حتى تركك القراءة جثة هامدة . وفي « المزامير » و « الأمثال » يظل الإنسان يطالع نفس الأفكار والمشاعر مصوغة بنفس العبارات أو بعبارات متقاربة على مدى مائة وستين صفحة من الصفحات المزدحمة حتى ليختنق اختناقاً . ثم هناك أسفار النبوءات الخاصة بأنبياء بنى إسرائيل التي تكتظ بتقريع هؤلاء الأنبياء لأقوامهم الصلاب الرقبة وشممهم لهم ولعنهم إياهم وشماتتهم بهم وتنبؤهم بما ينتظرهم من مستقبل أسود مما يستغرق مئات الصفحات . وهذا في العهد العتيق ، أما في العهد الجديد فعندنا أربعة أناجيل كل منها يحكى سيرة المسيح عليه السلام من البدء إلى النهاية : نفس الحوادث ، نفس الأشخاص ، نفس الحوارات . وقد كانت سيرة واحدة فقط منها تكفى .

تمام المعنى ، « والأصح أن يستمر على خطاب المخاطب » (ص ١١١) . وهذا يعنى أن ذلك الجاهل يقيم من نفسه معيارا للصحة اللغوية والدوق البلاغى الرهيف ، وهو الذى رأيناه يخطئ الأخطاء الفاحشة فى أوليات النحو . أليس ذلك من دواهى الزمن ؟ من أين لهذا الجاهل (الذى لو كان الأمر بيدي لعهدت به إلى مدرس خصوصى وأوصيته أن يقوم عوجه وبلادته بالخيزرانة) من أين له أن الالتفات لا ينبغى أن يستعمل إلا إذا انتهت الجملة وبدأت جملة أخرى ؟ لذلك لن أرد على هذا السخف وسأكتفى بإظهار المغزى البلاغى والنفسى لهذا الالتفات . والواقع أن فى هذا الأسلوب تعبيرا عن الإعراض عن المخاطبين فى الآية وإظهارا للزراية والإنكار عليهم ، فما أكثر ما يولى الواحد منا صفحة أو ظهره لمن لا يريد أن يستمر فى الحديث معه احتقارا له أو سخفا عليه وما إلى ذلك ، فهذا من ذاك .

وهناك شواهد على ذلك الأسلوب من الكتاب المقدس عند صريحنا ، مثل قول إخوة يوسف لفرعون : « جئنا لننزل بأرضك ، إذ ليس لعبيدك مرعى من اشتداد الجوع فى أرض كنعان ، فليقم عبيدك بأرض جاسان »^(١) ، حيث تم الالتفات من جماعة المتكلمين

(١) تكوين ٤٧ / ٤ .

«الأمر الفلانى والأمر الفلانى شأنهما كذا وكذا ، ولكن الأمر
العلانى فوق كليهما». وفى الفصل الثالث والعشرين من إنجيل متى
تقابلنا العبارة التالية سبع مرات منسوبة للسيد المسيح فى صفحة واحدة
ليس غير : «الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرازون» ، ومثلها فى
نفس الفصل عبارة «أيها العميان» أو «أيها الجهال والعميان» موجهة
أيضاً إلى طائفة الفريسيين . وعلى مدى الفصلين الثانى والثالث
جميعاً من «رؤيا القديس يوحنا» تقابلنا بعد كل عدة آيات قوله :
«من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس»... وهذه بعد مجرد
أمثلة قليلة .

ودعنا الآن مما يكتظ به الكتاب المقدس من تناقضات وأخطاء
أصبحت رائجتها تزكم الأنوف ، ولم يعد القوم يقدرُونَ على إخفائها
والتعمية عليها كما كانوا يصنعون فى عصور الظلمات والجهل ، بل
قصاراهم الآن تسويغها بنظرية مضحكة تقول إن المضمون العقيدى
والأخلاقى لهذه الكتابات هو من عند الله ، ومن ثم فلا خطأ فيه ،
بخلاف الأسلوب اللغوى والمعلومات التاريخية والحسابية والعلمية ،
فهذا من عند المؤلفين الذين وضعوا هذه الكتب ، وهو أمر طبيعى
لأنهم بشر . وهى نظرية مضحكة كما قلتُ : نضلاً عما فيها من
كذب لأن المضمون العقيدى والأخلاقى فى هذه الكتب يعج هو

أيضاً بالأخطاء والتناقضات ويشوّه مفاهيم الألوهية والنبوة والأخلاق تشويهاً فظيماً .

لهذا ولذلك فإننى لا أستطيع أن أفهم كيف جرؤ هذا الأبله على مهاجمة القرآن بأن فيه تكراراً ! إن ذلك التعيس لينطبق عليه القول المنسوب عندهم إلى السيد المسيح عليه السلام : « ما بالك تنظر القذى الذى فى عين أخيك ولا تفتن للخشبة التى فى عينيك ؟ يا مرأتى ، أخرج أولاً الخشبة من عينك ، وحينئذ تنظر كيف تخرج القذى من عين أخيك » .

ومما يجلب به ذلك الأخرق أيضاً من شبهات تبعث على الفهقة ما قاله كذلك فى هذا الفصل تحت عنوان « الكلام الغريب » من أن فى القرآن كثيراً من الكلمات الغريبة مثل « أَبٌ وَغَسْلِينَ وَحَصْنَحَصَ وَعَسْعَسَ وَالنَّاقُورَ وَمُدْهَامَّتَانِ » ، إذ يتساءل قائلاً : « أليست هذه الألفاظ الغريبة مخالفة للذوق السليم فى فن الإنشاء ؟ » (ص ١٩٦) . فعلاً ما كان ينبغى أن تكون فى القرآن مثل هذه الألفاظ ، بل كان يجب أن يجيء أسلوبه على غرار ما كانوا يعلمونه للأطفال فى بداية المرحلة الابتدائية فى مصر قبل بضعة عقود من مثل : « شرّ شرّ

نَطَّ يَأْكُل فَتَّ ! يا لله من هذا السخف ! يا لله من هذه الرقاعة !
وأبعث من ذلك على الفقهية أن تأتي هذه الملاحظة من جاهل
ركبك العقل واللغة لا يستطيع أن يصون عبارته من أخطاء النحو
الأولية ! لقد كلّم القرآن الكريم العرب بالأسلوب الذى يفهمونه ،
ومن الطبيعى بعد كل تلك القرون أن تصيح بعض ألفاظه غريبة على
الأجيال اللاحقة . ومع ذلك فإن مقارنة سرعة لُفَّتِهِ بلغة الشعر
الجاهلى تثبت فى الحال أن ما فيه من ألفاظ صارت بمرور الأيام
غريبة بعض الشيء ليس شيئا بالقياس إلى ذلك الشعر . إن هذا
الجاهل لا يفقه أن اللغة فى مسيرتها مع الزمن تعثر بها تطورات
وتغييرات كثيرة ، ومع هذا فإن ألفاظ القرآن من أقل الألفاظ تعرضا
لمثل هذه التغييرات . وما أسهل ، على من يعرف أسباب نزول الآيات ،
أن يفهم النص القرآنى رغم ما فيه فى كثير من الأحيان من إيجاز
وتكثيف .

واننى بدورى أسأله : لم يحتاج كتابكم المقدس كل فترة إلى أن
يُترجم من جديد ؟ أليس أحد الأسباب الرئيسية فى ذلك أن لغة
الترجمات القديمة تفقد مع السنين بعض ما كانت تتمتع به من
وضوح ؟ ورغم هذا فإن فى ذلك الكتاب ألفاظا لا يمكن فهمها
دون الرجوع إلى المعاجم منها على سبيل المثال : « جَلَدَ السماء ،

والكنارة ، والحمر ، والجوزل ، والجذامة ، والمُسر ، والإيفة ،
واليفاع ، والشظاظ ، والعصافة ، والظران ، والصباء ، والزوان ،
والعضاء ، والقندول ، والقنة ، والسمنجوني ، والحرص ، والرعل ،
والسراقون ، والشونيز ، والقطاني ، والهديذ ، والوغر ، والخراعب ،
والرنج ، والسنطير ، والأفود ، والأنوق ، والزُمج ، والورل ، والحردون ،
والبلسان ... إلخ ... إلخ إن كان لذلك من آخر !

أما الركاقة والتواء العبارة والعجز عن التعبير الواضح السلس في
« أعمال الرسل ورسائلهم ورؤيا القديس يوحنا » مثلاً فأمر يهون إلى
جانبه ذنب الضب الذي تُضرب به الأمثال في القبح والتعقيد . وهناك
أيضاً مواضع في الكتاب المقدس تبلغ من الإبهام حداً يجعل الشراح
يخطئون رؤوسهم في الحائط بسبب عجزهم عن فهم المراد منها مثلما
هو الحال في الفصل الثامن عشر من « نبوءة أشعيا » ، الذي يقول عنه
شراح الترجمة الكاثوليكية إنه « في غاية الإبهام والخفاء كما صرح
بذلك جميع المفسرين من المتقدمين والمتأخرين »^(١).

والى القارئ الآن بعض أمثلة من ركاقة الأسلوب أخذناها

(١) انظر الحواشي الملحقمة بترجمة المعهد العتيق / ص ٥٣ / نهر ١ / الفقرة قبل
الأخيرة .

كيفما اتفق ، وهي من رسالة بولس إلى أهل روما : « لأن غير منظوراته (أى غير منظورات الله) قد أبصرت منذ خلق العالم إذ أدركت بالمبروءات » ، « فلذلك أسلمهم الله فى شهوات قلوبهم إلى النجاسة لفضيحة أجسادهم فى ذواتهم » ، « لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الفضيحة ، فإن إنائهم غير استعمال الطبيعى بالذى على خلاف الطبيعة ، ويكون القلف الذى بالطبيعة وهو يتم الناموس يدينك أنت الذى بالحرف والختان تتعدى الناموس » ، « ونحن نعلم أن كل ما يقوله الناموس يقوله لأصحاب الناموس لكى يسد كل فم ويصبح العالم كله مجرماً لدى الله ، إذ لا يبرر بأعمال الناموس أحد من ذوى الجسد أمامه لأنها بالناموس عرفت الخطيئة . أما الآن فقد اعتلن بر الله بغير الناموس مشهوداً له من الناموس والأنبياء ، وهو بر الله بالإيمان يسوع المسيح إلى كل وعلى كل من الذين يؤمنون لأنه لا فرق ، إذ الجميع قد خطئوا فيعوزهم مجد الله فيبررون مجاناً بنعمته بالفداء الذى هو بالمسيح يسوع » ، « طوبى للرجل الذى لم يحسب عليه الرب خطيئة . أفَللختان فقط هذه الطوبى أم للقلف أيضاً ؟ فإننا نقول إن الإيمان حسب إبراهيم بر ، فكيف حسب ؟ إذا كان فى الختان أم إذا كان فى القلف ؟ إنه لم يكن حيثشذ فى

الختان بل فى القَلَف . وقد أخذ سمة الختان خاتماً لِبَرِّ الإيمان الذى
كان فى القَلَف ليكون أباً لجميع الذين يؤمنون وهم فى القلف
لِيُحْسَبَ لَهُم أيضاً البرّ إلخ ... إلخ . أفيجوز لخريج هذه المدرسة
الأسلوبية أن يتشامخ على أسلوب القرآن ؟ بُعداً له وليوم أقدم فيه على
تلك الجريمة !

وبالنسبة لتكرار آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » عدة مرات فى سورة « الرحمن » نذكر صويحبنا الجاهل بعبارة « فإن إلى الأبد رحمته » ، التى تابعت ستا وعشرين مرة فى ست وعشرين جملة هى مجموع المزمور الخامس والثلاثين بعد المائة ، كما تكررت قبل ذلك فى المزمور السابع عشر بعد المائة فى الآيات الثلاث الأولى والآية الأخيرة . ومثلها كلمة « سلاه » ، التى تتكرر كثيرا فى عدد من المزامير تكرارا متقاربا . ولناخذ أيضا : « سُبِّحُوا الله فى قدسه . سُبِّحُوا فى جَلْدِ عِزَّتِهِ سُبِّحُوا لِأَجْلِ جَبَرُوتِهِ . سُبِّحُوا بِحَسَبِ كَثْرَةِ عَظَمَتِهِ . سُبِّحُوا بِصَوْتِ الْبُوقِ . سُبِّحُوا بِالْعُودِ وَالْكَثَّافَةِ . سُبِّحُوا بِالْدفِّ وَالرَّقَصِ . سُبِّحُوا بِالْأُوتَارِ وَالزَّمَارِ . سُبِّحُوا بِصُنُوجِ السَّمَاعِ . سُبِّحُوا بِصُنُوجِ الْهَتَافِ . كُلَّ نَسَمَةٍ فَلْتَسْبِّحِ الرَّبَّ » ، وهو كل المزمور المائة والخمسين . وفى الفصلين الأول والثانى من سفر « الجامعة » تظل تتردد فى آذاننا بِالْحَاحِ مَزْعِجٌ أَنْ « الْجَمِيعُ باطل وكآبه الروح » . أما فى بداية الفصل الثالث فتأتى عبارة « لِلشَّيْءِ الْفُلَانِ وَقْتُ » ثلاثين مرة على النحو التالى : « لِكُلِّ غَرَضٍ تَحْتَ السَّمَاءِ وَقْتُ : لِلوَلَادَةِ وَقْتُ ، وَلِلْمَوْتِ وَقْتُ . لِلغَرَسِ وَقْتُ ، وَلِلْقَلْعِ الْمَغْرُوسِ وَقْتُ ... لِلإِعْتِنَاقِ وَقْتُ ، وَلِلْإِمْسَاكِ عَنِ الْمَعَانِقَةِ وَقْتُ ... لِلتَّمْزِيقِ وَقْتُ ، وَلِلخِيَاطَةِ وَقْتُ ... » وهكذا إلى آخر المرات الثلاثين . وفى الفصل الأربعين من سفر « يشوع بن سيراخ » تتكرر عَشْرَ مَرَّاتٍ تقريبا عبارة

الفصل الثانى

(شبهات خاصة بالمضمون)

شبهات خاصة بالمضمون

وبعد أن انتهينا من الاعتراضات اللغوية وبدا أن ليس للعبد
القاضي عينان في رأسه ولا عقل أيضاً نتحول إلى اعتراضاته الخاصة
بالمضمون. ولأن هذه الاعتراضات كثيرة ومتنوعة ، وبعضها مما لا
يمكن أن نصل فيه إلى شيء بسبب تعلقه بأمور مستقبلية أخبر القرآن
أنها ستقع في آخر الزمان مما لا مدخل فيه للأخذ والرد لأنه لم يحدث
بعد ، فلسوف أكتفي باختيار عدد كاف من هذه الاعتراضات
لمناقشتها ، مستصحباً معي المسامحة الشديدة التي اصطحبتها في
المناقشات اللغوية . ولسوف يرى القارئ الكريم ، رغم ذلك ، أن
الأسداد قد ضُربت على ذلك التعميس الذي يذكرنا بصرصو ينطح
جبلاً أشم بغية زحزحته عن موضعه !

وها نحن أولاء نتوكل على الله ونجعل مفتتح كلامنا ما قاله
الثقليل الظل الوخيم الفهم عن نوح عليه السلام . قال ، فض الله فاه ،
ولعنه لعنة متتقا : « جاء في سورة « نوح » / ٢٤ : « ولا تزد
الظالمين إلا ضلالاً » ، فكيف يدعون نوح ربه أن يزيد الناس ضلالاً ؟
كما أن الله ليس مصدر الضلال . ونوح نفسه لا يحب الضلال ،
فالتاريخ المقدس يشهد له : « كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله »

(تكوين ٦ / ٩) وأنه «كان كارزا للبَر» (٢ بطرس ٢ / ٥) ،
(ص ٣١) .

هذا ما قاله الشقى ساعيا إلى حتفه بظلمه ، إذ قد أعطانا بذلك
فرصة طيبة لتعرض على القراء الأفاضل شيئا من الأفاكية التى سطرها
مؤلف سفر «التكوين» على أنها وحى إلهى ، مع أنها لا تزيد عن
كونها خرافات تصلح لسمَر البدائيين على ضوء القمر فى قلب
الغابة. وبعد أن نعرض بعضا من هذه الأفاكية والأقارب نثنى فنكر على
سخافات صويحبنا ونكسحها كسحا . والآن إلى هذه المقتطفات من
سفر «التكوين» ، وهى من الفصول التى تسبق ذِكْر نوح فقط :

١ - «وكان نهر يخرج من عدن فيسقى الجنة ، ومن ثم ينشعب
فيصير أربعة أرؤس : اسم أحدها فيشون ، وهو المحيط بجميع أرض
الحويلة حيث الذهب ، وذهب تلك الأرض جيد . هناك المقل وحجر
الجزع . واسم النهر الثانى جيحون ، وهو المحيط بجميع أرض الجنة .
واسم النهر الثالث حدّاقل ، وهو الجارى فى شرقى آشور . والنهر
الرابع هو الفرات » (١٠ / ١ - ١٤) . أرايت أيها القارئ العزيز هذه
الدُّرر الجغرافية والجيولوجية الحلمنتيشية التى يتقاصر دونها كل ما
فى كُتب علماء الجغرافيا والجيولوجيا ؟

٢ - « فسمعنا (أى آدم وحواء) صوت الإله وهو متمشٍ فى الجنة عند تسييم النهار فاخْتَبَأَ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فيما بين شجر الجنة ، فنادى الربُ الإلهُ آدمَ وقال له : أين أنت ؟ قال : إني سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاخْتَبَأْتُ » (٨/٣ - ١٠). ترى هذا إله أم عمدة من عُمَد الرِيف عندنا خرج لتفقد حقوله بعد غفوة القيلولة وهبوب نسمة العصارى ؟ ثم أى إله هذا الذى يختبئ منه عباده فلا يستطيع أن يعرف أين اختبأوا فيضطر إلى رفع صوته يسألهم أين يختبئون ؟

٣ - « قال الرب لقائين (بعد أن قتل أخاه هايل) : أين هايل أخوك ؟ قال : لا أعلم . ألعلى حارس لأخى ؟ » (٩/٤). فانظر إلى قلة الأدب والجلافة الموجودة فى هذا الكلام الموجه إلى الله ! إنها الوقاحة اليهودية الفاجرة !

٤ - « ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وُلِدَ لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس إنهن حسنات فاتخذوا لهن نساءً من جميع من اختاروا ، فقال الرب : لا تحلّ روحي على الإنسان أبداً لأنه جسد ، وتكون أيامه مائة وعشرين سنة . وكان على الأرض جبايرة فى تلك الأيام وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم

أولادا . أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر . ورأى الرب أن شر الناس قد كثر على الأرض وأن كل تصور أفكار قلوبهم إنما هو شر في جميع الأيام ، فندم الرب أنه عمل الإنسان على الأرض وأسف في قلبه ، فقال الرب : أمحو الإنسان الذي خلقتُ عن وجه الأرض : الإنسان مع البهائم والدبابات وطير السماء لأنى ندمت على خلقى لهم ، (١ / ٦ - ٧) . هل سمع أحد من عقلاء البشر أو حتى مجانيينه أن لله أولادا ؟ ومن أمهم يا ترى ؟ ثم عندما ذهب أولاد الله ليخطبوا بنات الناس ، هل أخذوه معهم ليفتح آباءهن ويتفق معهم على الشبكة والمهر والشقة والأثاث ؟ ثم أى إله هذا الذى يأسف ويندم على ما فعل ؟ هذا ليس هو الله رب العالمين بل إله من آلهة الوثنيين البدائيين بلغ من غضبه وندمه أن تشوش عقله فلم يعد يستطيع أن يقوم بأنفعه العمليات الحسابية ، فمرة يقول لنوح : خذ من كل كائني حي اثنين اثنين ذكرا وأنثى ، ثم ينسى ما قاله بعد قليل فيجعل العدد من الحيوانات الطاهرة ومن طير السماء سبعة سبعة ذكورا وإناثا ، ليعود مرة أخرى إلى عدد الاثنين^(١) . ولقد مرّ فى النص السابق أنه كان هناك جبابرة كثيرون قبل الطوفان : قبل أن يتخذ أبناء الله بنات

(١) تكوين ١ / ٦ - ١٩ ، ٢٠ ، ٢ / ٧ - ٣ ، ١٥ - ١٦ .

الناس ، وأيضاً بعد أن اتخذوهن لهم نساء ، إلا أن كاتب هذا السفر ،
 كمعادة مؤلفي الكتاب المقدس ، قد نسي هذا فقال عن نمرود
 (حفيد ابن نوح ، الذي وُلِدَ بعد الطوفان بزمان طويل) إنه « أول
 جبار في الأرض »^(١) . وحتى نمرود هذا لا ندري بالضبط من
 أبوه : فمرة يذكر الكاتب أبناء كوش بن حام بن نوح فلا يورد بينهم
 اسم نمرود ، لنفاجأ به بعد أقل من سطر يقول : « وكوش وُلِدَ
 نمرود »^(٢) .

وبعد هذه التفككة نرجع إلى ما قاله الشقيُّ عدوُّ نفسه ، إذ
 يستغرب دعوة نوح ربِّه أن يزيد الناس ضلّالا . ونحب أولاً أن نوضح
 أن نوحاً لم يدعُ على الناس بإطلاق بل على الظالمين فحسب ، لكن
 الأعمى البصر والبصيرة لا يدرك هذا . ثم إن نوحاً ، في كتابهم
 المقدس ، قد دعا على حفيده كنعان ولعنه لا لشيء إلا لأنه هو قد
 شرب خمرًا حتى سكر وانطرح على الأرض وتكشفت سوائه فرآه ابنه
 حام (أبو كنعان) على ذلك الوضع ، فلما أفاق نوح وعلم بما حدث
 انطلق في نوبة مسعورة يلعن كنعان ويدعو عليه بأن يجعله الله عبداً

(١) تكوين ١٠ / ٨ .

(٢) تكوين ١٠ / ٧ - ٨ .

لعييد إخوته^(١)، مع أنه لا ذنب لحام فضلا عن كنعان المسكين الذى لا طاقة له فى المسألة ولا جمل ، ولكن يبدو أن السكير لم يكن قد أفاق تماما من الخمر فلم يكن يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل ، ولا على من يدعو ولا من يلعن . أو مثل هذا اللعان للأبرياء يستبعد العيد الفاضى أن يدعو على الظالمين من قومه ؟ أهكذا يخرجك حقدك يا عبد الفاضى على سيد الأنبياء عن كل عقل وفهم ؟

ثم إن الذى يسمع ذلك العبد الفاضى وهو يقول إن الله ليس مصدر الضلال ، سيتساءل على الفور : فكيف تؤمنون إذن بما يقوله كتابكم المقدس عن الرب الذى ندم على خلق البشر وعزم على استئصالهم ؟ ولماذا لم يفكر فى هدايتهم بدل هذا القرار الاستئصالي الذى لن يأتى رغم ذلك بالنتيجة المرجوة لأن البشر لن يتغيروا؟ والمضحك فى الأمر أن الرب ، الذى يعرف هذا جيدا ، قد أخذ احتياطة (حسب كلام الكتاب المقدس نفسه) حتى لا ينسى مرة أخرى فى غمرة ندمه على خلق البشر فيُغرقهم بالطوفان كما

(١) تكوين ١٩ / ٢٠ - ٢٧ . وغنى عن البيان أننا لا نصدق أن نوحا عليه السلام قد أبى شيئا من ذلك ، فنوح حملنا نبى كريم ، لكننا نجارى الشقى . فحدثنا هنا إنما هو عن نوح المهذّب العتيق الذى ليس فى سفر التكوين « أبدا أنه نبى ، لا عن نوح الذى نمرقه فى قرأتنا الكريم .

فعل من قبل ، إذ لجأ إلى وسيلة تذكره إذا سها ، ألا وهي أنه عند سقوط المطر يَظْهَر قوس قزح ، فإذا رآه تنبّه فلم يرسل عليهم الطوفان^(١) .

وما دام العبد الفاضى قد فهم أن الله ليس مصدر الضلال ، فِيمَ يا ترى يفسّر غيره هذا الرب ذاته من آدم لمعرفة الخير والشر مثله كما جاء فى الكتاب المقدس ، فأخرجه لذلك من الجنة إلى الأرض وما فيها من تعبٍ وهم^(٢) ؟ وما السر يا ترى فى حقد ذلك الرب على البشر حين رآهم شعباً واحداً ذا لغة واحدة فبلبل الستهم وشئت شملهم وبددهم فى الأرض تديداً^(٣) ؟ وإذا كان نوح ، كما يقول العبد الفاضى ، باراً كاملاً فى أجياله ، فكيف يا ترى كان يسكر على النحو الذى رأينا ويلمح حفيده ويدعو عليه بالعبودية دون ذنب جناه ذلك الحفيد المسكين ؟ من هنا فإننا لا ندرى لأى سبب «نال نوح حظوة فى عيني الرب» . إن سفر «التكوين» لا يذكر لنا شيئاً يستحق أن ينال لأجله الحظوة الإلهية دون سائر البرية ! ولقد لعن.

(١) تكوين / ٩ - ٦ - ١٧ .

(٢) تكوين / ٣ / ٢٢ - ٢٣ .

(٣) تكوين / ١ / ٩ .

المسيح نفسه شجرة تين حسبما هو مكتوب في الأناجيل لا لشيء سوى أنه لم يجد فيها تينا لأن الموسم لم يكن موسم تين . فما وجه الغرابة إذن أن يدعوا توح على الظالمين من قومهم بأن يزيدهم الله ضلالا ، أى ألا يعطيهم صبحانه فرصة أخرى بعد أن استنفدوا كل الفرص على مدى مئات السنين التى ظل يدعورهم فيها إلى الله عبثا فأصروا على ما هم فيه من ضلال ؟ ما وجه الغرابة فى هذا أيها التعميس ؟

* * *

ويستكر الشقى أن يكون إسماعيل عليه السلام رسولا نبيا طبقا لما جاء فى سورة « مريم » / ٥٤ ، قائلا : « كيف يكون إسماعيل نبيا ، والتوراة تصفه فى « تكوين » / ١٦ / ١٢ : « وإنه يكون إنسانا وحشيا : يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه » ؟ (ص ٤٠) . وإننا لنسأل : وهل فى هذا النص أن الله حرّمه من النبوة ؟ وهذا إن صدّقنا أنه نص صحيح ، وهو ما لا يدخل عقولنا أبدا . كيف ذلك ؟ تعالوا لتفحص النص عن قرب ونجول جولة فى بعض أسفار الكتاب المقدس لنرى مدى منطقية ما يقول .

وأول شيء يستلزم أن نقف حياله هو أن هذه العبارة التى استشهد

بها ذلك التعميس هي جزء من بشارة ملاك الرب لهاجر أم إسماعيل
 (عليها وعلى ابنها السلام رغم أنف الحقد من بني إسرائيل ومن
 يشايعونهم في هذا الحقد عليهما)، وذلك حين هربت من المعاملة
 المذلة التي كانت تعاملها بها سارة عليها السلام حسبما يقول كاتب
 سفر «التكوين». وهذه هي بشارة الملاك كاملة: «لَا كَثْرُنْ نَسْلُكَ
 تَكْثِيرًا حَتَّى لَا يُحْصَرَ لِكَثْرَتِهِ. وَقَالَ لَهَا مَلَاكُ الرَّبِّ: هَآئِثِ حَامِلٌ،
 وَتُسَلِّدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ إِسْمَاعِيلَ لِأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ صَوْتَ شَقَاؤِكَ،
 وَيَكُونُ رَجُلًا وَحْشِيًّا: يَدُهُ عَلَى الْكُلِّ، وَيَدُ الْكُلِّ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ
 إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ»^(١). وأستحلفك أيها القارئ الكريم: أهذه بشارة أم
 نذارة؟ أمّن الممكن أن يمتنّ الله على عبد من عبياده بأنه سينعم عليه
 مثلاً بقصرٍ فخّم لن يجد فيه راحة أبداً بل ستكون أيامه فيه كلها
 شقاءً ونكدًا، أو أن يقول له: إني وأحبك يا عبدى ثروة هائلة تنفقها
 إن شاء الله على أمراضك وأمراض أولادك المستعصية؟ بالله أهذه
 بشرى؟ إنها لإنذار بالهمّ والغمّ والشقاء! والمضحك أن هاجر، كما
 جاء في الآية التي بعد ذلك، تبلع في سذاجة مطلقة لا تحسد عليها
 هذا الكلام الذي لا يدخل العقل وتعدّه مكرمة عظيمة!

(١) تكوين ١٦ / ١٠ - ١٢.

أما الأمر الثاني فهو أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئا من هذا التوحش الذى دمغ به إسماعيل ملفق الكلام السابق ، بل على العكس نرى يعقوب بن إسحاق يذهب فيتزوج محلة بنت إسماعيل بدلا من بنت خاله التى أمره أبوه باتخاذها امرأة له^(١). قائل التوحش هنا ؟ وواضح أن يعقوب كان يعرف أنه لا تصلح له بنت أخى أمه ، تلك الأم التى أضمرت بينه وبين أخيه عيسو نار الكراهية والتقاتل حسبما جاء فى العهد العتيق فابتعد عن كل ما له صلة بأمه وأخذ بنت عمه الرجل النبيل الذى افترى عليه الزور ملفق سفر «التكوين» الكذاب الأشر .

لكن ما الذى فعلته رقيقة زوجة إسحاق فأضمرت به نار الكراهية والانشقاق والتقاتل بين ولديها ؟ لقد أراد زوجها الشيخ الكليل البصر أن يبارك ابنها البكر عيسو ، لكنها تسارع فتخبر يعقوب بما ينويه أبوه ، وتطلب منه أن يهوى لأبيه طعاما قبل أن يعود أخوه من رحلة الصيد بالطعام الذى اشتهاه أبوه ، وأن يلبس ملابس أخيه ويغطفى يديه وعنقه بفررة معز لأنه كان أملط على عكس عيسو الأشعر . وتدخل الحيلة الساذجة مع الطعام الجيد والخمر المعتقة عقل إسحاق ، وينال

(١) تكوين / ٢٧ وما بعده .

يعقوب البركة بالتزوير . وعند رجوع عيسو من الصيد وعلمه بما وقع
 يخبر أباه بما حدث فيكون رده أنه لا يستطيع له شيئاً لأن البركة قد
 أخذها أخوه ، وما انكسر لا يمكن إصلاحه^(١) ، ولا أدري لماذا ،
 فالمفروض أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله ، بيد أنه كان لنبي الله
 يعقوب رأى آخر . ولكن فلنعد عن هذه أيضاً ، وإلا فلن تنتهى ، فكل
 العهد العتيق هكذا ، فإذا ذهبنا نرقعه نَمزق في أيدينا ! المهم أن
 البغض والحقد والتناحر قد طبع منذ ذلك الحين العلاقة بين الأخوين
 بطابعه الخبيث ، والبركة في الأم ، التى يجعلها أهل الكتاب نبية من
 أنبيائهم ، وكأن الحنث والشر والكذب والإجرام والخداع والتلفيق
 هى مؤهلات النبوة عندهم^(٢) . آرايتم ، أيها القراء الأعزاء ، فى أى
 معسكر يوجد التوحش : فى إسماعيل عليه السلام وذريته أم فى
 المعسكر المقابل ؟

على أن هذا لم يكن التزييف الأول فى حق إسماعيل ، فقد
 سبق أن كَذَبَ العهد العتيق عليه وتجاهله فى مسألة الذبح كأنه لم

(١) تكوين / ٢٧ وما بعده .

(٢) رددت على الزعم الخاص بنبوة رقيقة هذه فى كتابى « مع الجاحظ فى رسالة
 الرد على النصارى » / مكتبة زمراء الشرق / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م / الفصل
 الخاص بـ « نبوة النساء » الذى يشغل الصفحات ٩٩ - ١١٥ .

يمكن له وجود البتة أو كأنه على الأقل لم يكن قد وُلد بعد . وتفصيل الأمر أن إسماعيل ، كما هو معروف وكما جاء في الكتاب المقدس نفسه ، قد وُلد قبل إسحاق بعدة أعوام ، ومع ذلك يقول ملفق مقر «التكوين» ، الذى يتنفس الكذب تنفساً ويتمتع بوجه وقع فلا يطرف له جفن ، وهو يقترب الكذب جهاراً نهاراً وعلى مرأى ومسمع من العالمين ، هذا الملفق الكذاب يقول إن الله أراد أن يمتحن إيمان إبراهيم فقال له : « خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق وامض إلى أرض موريّة وأصعبه هناك مُحَرَقَةً على أحد الجبال الذى أريك... » (١) . أمبعل أن يقول الله عن إسحاق إنه ولد لإبراهيم الوحيد ؟ فماذا كان إسماعيل إذن ؟ ألعله كان ابن الجيران ؟ أم ترى نسى الله سبحانه أنه كان قد وهب لإبراهيم قبل عدة أعوام ابناً اسمه إسماعيل ؟ لكن لماذا ؟ أممكن أن يكون هذا هو الله رب العالمين الذى نعرفه أم هو إله من آلهة الوثنيين البدائيين ؟ ثم يأتى فى آخر الزمان صويحبنا الجاهل ويتحدانا بمثل هذه السخافات ! عجب لك يا زمن !

ولأن الطبع غلاب فإن يعقوب عاد بعد هذا فصاهر خاله لاهان عابد الأصنام ... ولكن يحسن أن نورد القصة كاملة أولاً حتى يتبين

(١) تكوين / ٢٢ / ١ - ١٣ .

للقارئ أن فوق كل ذي مكر من هو أكر منه . لقد شاهد يعقوبُ أثناء ترحاله إلى الشرق بنتَ خاله راحيل وهي تسوق غنمها إلى البئر، وكانت راحيل جميلة ، فأخذت بلبه ، وجاء أبوها فعانقه وقبله وأخذه إلى بيته حيث مكث عنده سبع سنين خدمه فيها لقاء الزوج بحبيبة قلبه . بيدَ أنه في صباحية دخوله بها في آخر السنوات السبع فوجئ بأن خاله قد زوجه بدلا منها ليثة أختها العاطلة من الجمال^(١) .

أي أنه أعطاه «مقلبا سُخنا» ، ومن شابه أخته فما ظلم ! ورغم ذلك يصف مؤلفُ سفر «التكوين» إسماعيلَ بالتوحش والنفور من الخلق ونفور الخلق منه ! وثمة نقطة أخرى في القصة تدل على سذاجة هذا الملقق الذي يكذب ولا يعرف كيف يسوي كذبه كما يقول أهل الريف ، إذ يذكر أن يعقوب لم يتبين الخدعة إلا في الصباح . أي أنه قضى الليل كله في أحضان ليثة وهو يظنها راحيل ! ترى ألم يكن هناك نور في تلك الليلة البتة ؟ وحتى لو لم يكن هناك نور ، أكانا يمارسان الجنس في فلم من أفلام السينما الصامتة فلم يتعرف يعقوب على عروسه من صوتها ؟ انظر أنت أيها القارئ وتعجب ، أما أنا فأسألك ! ثم يقولون بعد ذلك كله إن هذا وحى إلهي !

(١) تكوين / ٢٩ / ١ - ٢٥ .

ولكن هل هذا هو كل شيء ؟ كلا ، فما زلنا فى أول فصول المسرحية الهزلية ، وإن كنت لا أنوى أن أحكى كل فصولها بل سأجتزئ ببعضها ، وبمكتة القارئ أن يقيس ما لم أحكه على ما حكيتُه . وما نحن أولاء الآن مع أولاد يعقوب ، الذين مزقتهم الأحقاد بسبب المعاملة المتحيزة التى كان أبوهم يميز بها بعضهم على بعض . ومعروفة قصة يوسف وتأمر إخوته عليه بما حكاه العهد العتيق والقرآن الكريم جميعا ، وهو تأمر بشع بدل على المدى الوحشى الرهيب الذى بلغه الانشقاق بين أولاد يعقوب . ثم لا يستحى ملفق سفر « التكوين » فيرمى إسماعيل عليه السلام بالوحشية والنفور رغم كرمه ونبل طبعه وأخلاقه ! إلا أن فضائح بيت يعقوب طبقا لرواية العهد العتيق لم تنته بعد ، فقد وقعت دينة بنت يعقوب فى غرام شكيم بن حمور الوثنى الأقفى ومارست معه الفاحشة^(١) ، كما زنى أخوها يهوذا بشامار أرملة ابنه عير وهو يحسب أنها بغي ، إذ كانت أخذت زيتها وهيأت نفسها له وترصدته حتى أوقعت به وهى مثقبة . ومن بجاحته أنه ، عندما علم أنها قد اشتغلت ببغيا ، أمر بإخراجها

(١) هذا ما رواه ملفق العهد العتيق (تكوين / ٣٤ / ١ وما بعدها) ، وإن كنا نحن المسلمين نشتبه تماما حدوث مثل ذلك الدنس فى بيوت أنبياء الله ، ولكننا نجرى مع ما يقول القوم ، وعلمه خاية المسامحة من جانبنا ، إذ لا نأخذهم إلا بأقوالهم هم .

لُتَحْرَقَ جزء مما رستها للبقاء ، لكن ما إن عرّفته أنها إنما مارست معه الزنا لا مع غيره حتى خرسَ وأكفأ على الخبر ماجورا ، وعفا الله عما سلف^(١) !

ولا يقلّ رءوين أخوه عنه في الفحش والفجور إن لم يفقه ، فقد اعتدى على عرض أبيه فضاجع سرّيته^(٢) . ولعلك ، أيها القارئ العزيز، تظن أن الأب قد ثار على هذا الفجور وأدب الزانيّين بما يستحقان ، لكن أرجوك ألا تكون حسن النية إلى هذا الحد لأن كتابهم المقدس يقول شيئا آخر ، فهذا هو ذا يعقوب يدعو أولاده في آخر عمره ليكلّمهم في بعض الأمور المهمة ، فيكون أول كلامه أن خاطب رءوين قائلا : « رءوين ، أنت بكري ، قوّتي ، وأول قدرتي . فاضلٌ في الشرف ، فاضلٌ في العزّ . فَرَّتْ كالماء . لا تَفْضُلْ لأنك علّوت مضجع أبيك . حيثذ دنّسته . على فراشي صعد^(٣) . وواضح رنة الفخر برءوين في كلام أبيه ، إذ يصفه بأنه « فاضلٌ في الشرف ، فاضلٌ في العزّ » وبأنه « أول قدرتي » . أما الجملتان الأخيرتان اللتان يلمح فيهما إلى زنا ابنه بسرّيته فهما كالنغمة الناشزة بين سائر أنغام

(١) تكون / ٣٨ كله . وأنا لا أصدق شيئا من ذلك ، ولكن هكذا يقول الملقنون !

(٢) تكون / ٢٥ / ٢٢ .

(٣) تكون / ٤٩ / ١ - ٤ .

اللعن الأخرى المتناسقة . وعلى أية حال فهما كل ما هنالك من رد
فعل على هذه الفاحشة النكراء ! حقا أنها عائلة شريفة !

ومن هذا الوادى المتن أيضاً ما عزاه الكتاب المقدس إلى داود
عليه السلام من التجسس من فوق قصره على زوجة قائده الحربى
أورياً وهى تستحم عارية فى فناء بيتها المكشوف (على طريقة مشاهد
« الإستريپتيز : striptease ») ، ثم استدعائها إلى القصر والزنا بها ،
ثم قضائه على زوجها بمؤامرة إجرامية خسية ، ثم تعزيبته لها فيه
(فهو يقتل القتييل ويمشى فى جنازته !) ، ثم تزوجه بها وإخجابه
سليمان منها . أى أن سليمان عليه السلام عندهم هو ابن هذه الزانية !
الله أكبر ! فلا عجب إذن أن ينظم من كان ابناً لمثل هذه المرأة تشيد
العُهر المسمى « تشيد الأناشيد » . وكانت نتيجة قَعْلَة داود مع امرأة
قائده أن سَخَطَ الله عليه وتهدهه قائلاً : « والآن لا يقارق السيف
بيتك إلى الأبد ... إني مشير عليك الشر من بيتك ، وسأخذ أزواجك
وأدفعهن إلى غيرك فيدخل على أزواجك فى عين هذه الشمس »^(١) .
وتستمر مخازى هذه العائلة المحترمة حسبما سطر ملفقو الكتاب
المقدس ، فهذا هو أمتون بن داود يقترف زنى المحارم مع أخته الجميلة

(١) الملوك الثانى / ١١ كله و١٢ حتى الجملة الحادية عشرة .

تامار ، ولم يفتح أبوه بكلمة حرصا على ألا يؤلمه لأنه كان يحبه^(١) .
 أَنْعِمُ وَأَكْرِمُ ! ورغم ذلك كله وشمخ العبد الفاضى على إسماعيل
 عليه السلام قائلا إنه لا يصلح للنسوة . هل وأنتم وقاحة من قبل
 كهذه الوقاحة ؟

ولتَعُدَّ إلى نبوءات يعقوب الخاصة بمستقبل أولاده الآخرين حيث
 نقرأ : « شمعون ولاوى أخوان . سيفهما آلات جور . مجلسهما لا
 تدخله نفسى ، وفى مجمعهما لا تتحد ذاتى . فى سخطهما قتلا
 إنسانا ، وفى رضاهما عرقبا ثورا . ملعون سخطهما فإنه شديد ،
 وغضبهما فإنه قاسى . أقسمهما فى يعقوب ، وأبددهما فى إسرائيل .
 يهوذا ، إياك يحمدك إخوتك . يدك على قذلى أعدائك . يسجد لك
 بنو أبيك^(٢) ... يكون دان ثعبانا على الطريق وأفعوانا على السبيل ،
 يلسع وسنغ الفرس فيسقط الراكب إلى الوراء ... جاد يقحمه الغزاة ،
 وهو يقحم ساقتهم ... يوسف ... قامرته أصحاب السهام ورمته
 فاضطهدته ... بنيامين ذئب يفترس . بالغداة يأكل غنيمة ، وبالعشي
 يقسم السلب^(٣) .

(١) الملوك الثانى / ١٣ / ١ - ٢١ .

(٢) لاحظ أن يهوذا ذاك هو الذى مارس زنا المحارم مع كخته . ما لها من نبوءات
 صادقة !

(٣) تكوين / ٤٩ / ٥ - ٢٣ .

ثم إن بنى إسرائيل كانوا على امتداد تاريخهم الطويل ولا يزالون
يغضون الأمم الأخرى وتبغضهم الأمم الأخرى حتى ضرب المثل
بـ « الجيتو » و « حارة اليهود » حيث يعيشون فى عزلة عن سائر
أهل البلاد التى يتزلونها . وأسفار العهد العتيق تضطرم باللعنات
والنبوءات القاتمة التى تنتظر ذلك الشعب الصلب الرقة ، وهو دائما
وأبدا محط سخط الله وشتايمه ووزاياه . لنستمع معا إلى أشعيا على
مسبيل المثال وهو يصرخ فى غضب وبأس من صلاح حال أولئك
الأوغاد : « السيد (أى الرب) أرسل كلمة على يعقوب فوقعت على
إسرائيل ، وسيعلم الشعب كله ... سينهض الرب عليه أضداد رصين
ويسلح أعداءه : أرام من الشرق ، وفلسطين من الغرب ، فياكلون
إسرائيل بكل أفواههم ... سيقطع الرب من إسرائيل الرأس والذنب ...
بغضب رب الجنود تضطرم الأرض فيكون الشعب مثل وقود النار ، لا
يشفق واحد على أخيه ... ياكلون كل واحد لحم ذراعه : منسى
أفرايم ، وأفرايم منسى ، وكلاهما يقومان على يهوذا . مع هذا كله
لم يرتد غضبه ، ولم تزل يده ممدودة » (١) .

والآن نشور سؤال : من الوحشيون يا ترى : إسماعيل وذريته أم

(١) نبوة أشعيا ١٦ / ٩ - ٢١ .

إسحاق ، وهؤلاء هم أولاده وأحفاده كما يعرضهم علينا الكتاب المقدس : خنًا وغشٌ وكذبٌ وقتل وتآمر خسيس وزنا بالمحارم وحقْد وقتال فيما بينهم ومع الآخرين ؟ ولقد انتهى أمر السيد المسيح مع بنى إسرائيل إلى أن أدار ظهره لهم بعدما لقي منهم الأمرين وأعطى وجهه للأمم الأخرى وطلب من تلاميذه أن يحملوا دعوته إليهم طبقا لما تقوله الأناجيل ذاتها . أفَلَكَ بعد ذلك أيها الأحقق عينٌ تجرؤ على مواجهتنا بها ؟

وبالنسبة لما جاء فى القرآن الكريم عن امرأة العزيز ودعوتها من يَلْكَنَ سيرتها من نسوة المدينة إلى مُتَكِبٍ فى بيتها واعترافها أمامهن بأنها مشغوفة بـيوسف ... إلخ يتساءل الأحقق مستنكرا : « هل يُعَقِّلُ أن زوجة ضابط كبير تهوى وليمة خَصِيصًا وتدعو سيدات أشرف المدينة لتعلن أمامهن غرامها بعبدها وتكشف عن وجهها برقع الحياء دون أن تخشى فضيحة ؟ وكيف يُعَقِّلُ أن النسوة ينشغلن بجمال يوسف حتى ليقطعن أيديهن بالسكاكين من غير إحساس من شدة الذهول ؟ » (ص ٤١) .

وأحسب أن القراء الكرام ، بعد فضائح الكتاب المقدس التى

ذكرتها لهم ، يستطيعون أن يدركوا إلى أى مدى بلغ جمود وجه
هذا الأحمق الذى يتظاهر بطيبة الطوية ويستغرب أن يصل التذلة بامرأة
ضابط كبير إلى ذلك الحد . يا أبا حماقة ، إن الترف الإجرامى
ليؤدى إلى هذا وإلى ما هو أشنع من هذا كما يعرف كل الناس .
وماذا ينتظر من امرأة كانت تطارد ابنها بالتبنى على هذا النحو وتقول
له بصريح العبارة كما جاء فى كتابكم المقدس : « ضاجعني » (هكذا
بالحرف الواحد) ؟ ثم إن زوجها ، طبقاً لما جاء فى كتابكم ، كان
خصياً ، أى أنها كانت تعاني من الحرمان الجنى المطلق ^(١) . كما
أن أولئك النسوة قد فضحنها فى كل مكان بالمدينة فلم يعد هناك
معنى لاحتفاظها ببرقع الحياء ، إذ وقعت الواقعة وانتهى الأمر .

ولقد تابع العالم منذ سنوات غير بعيدة الأمير تشارلز ولى عهد
بريطانيا وزوجته الأميرة ديانا ، وكلاهما يعترف فى المراء أمام مئات
الملايين فى أرجاء الكرة الأرضية باللقاءات الجنسية التى مارسها فى

(١) لست أصدق أن زوجها كان خصياً ، لأن الخصيان لا يتزوجون ، ولأنها هى
نفسها ما كانت لتقبل الزواج منه لو افترضنا أنه فقد عقله وأقدم على هذه
الخطوة ، لكننى أخذ صوريحتنا الأحمق بما جاء فى كتابهم لأبين له أنه ، فى
كل ما يشغب به على القرآن ، إنما يتخبط على غير هدئ فى القفص الضيق
الذى سمي إليه بقلبه !

الحرام من وراء رفيقه . وقبل ذلك بسنوات كان التلفاز البريطاني مشغولا في نشراته لفترة طويلة بعشق الأميرة آن (أخت تشارلز) للضابط مارك فيليبس وعشق خالته الأميرة مرجريت لأحد المصورين . وقل مثل ذلك في زوجتي أخويه . كذلك فالأحمق يعرف جيدا ما كان يفعله بعض بابوات روما في المصور الوسطى ، إذ يصطحب الواحد منهم عشيقته معه وهو يدور على رعائاه في جولاته «المقدسة» (المقدسة جدا) بوصفه خليفة المسيح على الأرض (ومعروف ما يمثله المسيح عليه السلام عند النصارى) ، فضلا عن أن بعضهم الآخر كان يمارس الزنا مع أخته بعلم من حوله على أقل تقدير !

وفي الكتاب المقدس نفسه نجد مثلا ابتنى لوط تنفقان دون خجل أو حياء على أن تسقيا أباهما خمرًا حتى يفقد الوعي ثم تضاجعاه الواحدة بعد الأخرى لتحبلا منه . ولا تنس داود ، الذي رأيتاه ، بعد أن شاهد بتشبع زوجة أوريا قائده من فوق سطح القصر ، يرسل من يحضرها إليه ويدخلها عليه . ومعنى ذلك أنه ، وهذا كلام الكتاب المقدس لا كلامي ، لم يستع من إعلان عشقه لها أمام رجال حاشيته على الأقل . ثم إنها ، بعد أن حملت منه ، قد أرسلت إليه من يتبعه بالأمر . ومعنى ذلك أيضا أنها لم تخجل من أن تعلن أمام من أرسلتهم إليه أنها زنت معه وحملت منه . ثم إنه قد اتفق مع

بعض رجاله أن يخلصوه من أرباب زوجها حتى يخلص له وجه بتشبع .
ومعنى ذلك ثالثاً أنه لم يخجل من إبداء تدليه في هواها وما استتبعه
هذا التدله من القضاء على الزوج المسكين ^(١) . أفق يا عبد الفاضى
من أواملك السخيفة ، ولا تحاول أن تقترب من القرآن لأنه لا يمسه
إلا المطهرون ، !

أما مسألة تقطيع النسوة أيديهن ، فما الغريب فى أن تجرح
نفسها ، بسكين حاد فى يدها تقطع به الفاكهة ، امرأة مترفة نزقة
طائشة عندما يخرج عليها فجأة شاب باهر الوسامة قد أصبح حديث
المدينة بسبب ولّه امرأة العزيز يهيلها وهيلانها به ؟ وفى كثير من
القصاص والأفلام الواقعية من مصنف هذا الوله المجنون ما لا يعدّ

(١) وهناك الآن أندية العراء حيث لا يخجل أعضاؤها من كشف سواتهم بعضهم أمام
بعض ، وكذلك جمعيات تبادل الزوجات ، ومؤتمرات الشواذ العلية ومظاهراتهم
فى الشوارع ومطالبتهم بحرية الشذوذ وأن يعاملوا معاملة محترمة ولا يتعرض لهم
أحد بأى شيء . وفى المحاكم فى جميع أنحاء العالم كثير من قضايا الأحوال
الشخصية التى يتبادل فيها الزوجان اتهامات الخيانة ويخوضان على مرأى
ومسمع من جمهور الحاضرين فى أمور تشتمل منها النفوس الكريمة . ولقد
كان بمستطاعهما تجنب كل ذلك والتفاهم على الطلاق الهادئ بعيداً عن
الفضائح ، لكنهما بفضلان مع ذلك سلوك هذا الطريق الوعر ونشر غسيلهما
القدر أمام كل العيون !

الذى فعلته صواحب يوسف بجانبه شيئا يستحق الذكر .

وقد فعلت الفتيات فى مصر ما هو أبشع من هذا عندما مات أحد المطربين العاطفيين منذ نحو ربع قرن ، ولم يكن يتمتع بشيء من جمال يوسف الذى ضُربت به الأمثال ، ومع ذلك انتحر بعضهن من شدة غرامهن به ! إن الحياة مملوءة بالغرائب ، وإن النفس البشرية لتفاجئنا كل يوم بما لا يخطر على البال ، فلماذا الاعتراض على القرآن الكريم فى تجريح النسوة المشتهات على امرأة العزيز أيديهن بالسكاكين انبهارا بجمال يوسف ؟

ويقول البيهق الأحمق أيضا : « جاء فى سورة « القصص » / ٨ ، ٣٨ : « إن فرعون وهامان وجنودهما كانتا خاطئين » ، « وقال فرعون : يا أيها الملأ ، ما علمتُ لكم من إله غيرى ، فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحًا لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين » ، وجاء فى سورة « غافر » / ٣٦ : « قال فرعون : يا هامان ، ابن لى صرحًا لعلى أبلغ الأسباب » . يقول القرآن إن هامان كان وزير فرعون ، بينما يثبت التاريخ أن هامان كان وزيراً لأحشويرش وأن بين فرعون وهامان زهاء ألف سنة . ثم إن فرعون كان ملك مصر ، وكان هامان وزيراً فى بابل ، وما أبعد الزمان والمكان بين فرعون وهامان !

فكيف يكون هذا وزيرا لذلك ؟ ويقول سفر «أستير» فى التوراة إن هامان كان وزيرا وخليلا لأحشويرش ملك الفرس الذى بدعوه اليونان زركيس ، (ص ٢٩) .

وقبل أن تبدأ فى تفنيد هذا السخف أوجه نظر القراء الكرام إلى جهل العبد الفاضى حتى فيما لا يمكن الخطأ فيه إلا من كائن فقد عقله تمام الفقدان : فأولا لم يقل القرآن فى أى موضع منه إن هامان كان وزيرا لفرعون . وها هى ذى كل النصوص الذى ذكر فيها هامان فى الكتاب المجيد قد أوردها صوبحنا ، فهل ترى فيها ، أيها القارئ العزيز ، أنه كان وزيرا لفرعون ؟ لقد ذكر اسمه مع فرعون ، وأمره فرعون أن يبنى له صرحا ، لكن القرآن لم يقل إنه كان وزيرا لفرعون. قد يكون فعلا وزيره ، وقد يكون كاهنه الأكبر ، وقد يكون مستشاره ، وقد يكون كبير مهندسيه ، وقد ... ، وقد ... وثانيا هذه أول مرة نسمع أن سفر «أستير» جزء من التوراة. إن التوراة هى الكتاب الذى أنزل على موسى عليه السلام ، أما سفر «أستير» فهو من كتب العهد العتيق التى لم ينزل أى شىء منها على موسى بل ألقت بعده تأليفا . وهذا الأحق لا يفقه هذه الأوليات ، فكيف تواتيه نفسه على الدخول فى تلك المازق إلا أن يكون قد فقد عقله ؟ وثالثا فإن كاتب سفر «أستير» فى العهد العتيق يقول إن أحشوروش كان ملكا على

لإمبراطورية تمتد من الهند إلى كوش، وتتألف من مائة وسبعة وعشرين
إقليمًا، وعاصمتها شوش^(١)، لكن صوبحنا الجاهل يقول إن هامان
كان وزيرا في بابل !

والآن يبدأ التنفيذ . وأول ما نذكر كافٍ وحده لنسف هذا الهرم،
ألا وهو أن سفر «أستير» مجرد «قصة خيالية» كما يقول مفسرو
الكتاب المقدس أنفسهم^(٢) . وقد أشرت منذ عدة سنوات في كتابي
«مع الجاحظ في رسالة الرد على النصارى» إلى ما لاحظته على هذا
السفر من وكاسة الأسلوب والطابع «الحواديتي» والتواهل الجنسية
الجريفة والتعمّل الزائد والمصادفات المتكررة والمجافاة لمنطق العقل
والتاريخ^(٣) . وها هم أولاء المعلقون على الترجمة الكاثوليكية ، التي
لم تكن بين يدي في ذلك الوقت ، يقولون الشيء ذاته تقريرا ،
ف«تاريخية التفاصيل وجوهر السفر أيضا تعترضهما صعوبات جمة
على الرغم مما جاء من ملاحظات سديدة عن الأخلاق الفارسية
وتوبوغرافية صحيحة عن مدينة شوش . من الممكن أن يكون اليهود قد
تعرضوا لتعنيفات من هذا النوع في أثناء الحكم الفارسي ، وقد حاك

(١) انظر الفصل الأول من سفر «أستير» / ١ - ٢ .

(٢) انظر مقدمة سفر «أستير» في الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس / ٨٧٧ .

(٣) يرجع في ذلك إلى الفصل المسمى «هامان» من الكتاب المذكور / ٥٥ - ٨٧ .

المؤلف حول ذكرها قصة خيالية» (١).

وحتى يكون القارئ على بينة من حقيقة هذا السفر واستحالة أن يكون وحياً إلهياً يمكن الاستناد إليه في إثبات تلك الحادثة التاريخية التي يدور عليها والتي لا يوجد دليل على وقوعها، نذكر له أنه يحكي قصة فتاة يهودية استطاعت ، بما لها من أتوة طاغية ، أن تقود الملك الفارسي من أنفه وتجعله يذير سياحة بلده مائة وثمانين درجة ليحتل اليهود فيها مكانة سامقة بعدما كانوا يسامون الخسف والهوان . وفي القصة حديث عن غضب الملك على زوجته لسبب لا يدخل العقل ، إذ كان قد طلب منها أن تتخذ أبيه زيتتها وتظهر معه أمام الملوك والشعوب ليشاهدوا جمالها وفتنتها، وهو ما لا تقبله نخوة أهل الشرق، وبخاصة من الملوك . وقد رفضت الملكة هذا الطلب الغريب ، فكانت النتيجة أن طلقها ، فتأمل أيها القارئ وتعجب! ثم جمعت للملك بعد هذا كل العذارى الفاتنات من أرجاء المملكة وانتخبت منهن أجمل سبع فيهن ، وكانت كل واحدة من هؤلاء السبع تهيأ بالتحفيف والأدهان والعطور سنة كاملة كي يقضى الملك معها ليلة قبل أن يقرر أيهن أصلح أن تكون زوجته ... إلى آخر هذا المهر

(١) الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس / ٨٧٧ .

والديانة المعروفين عن القوم . ورغم ذلك يريد رقعاء المبشرين منا أن نصدق أنها حادثة تاريخية سجلها الوحي الإلهي ويؤمنون أن يحاكموا القرآن إليها .

وفي هذه القصة العُهرية أن الذي كان يتولى كبر اضطهاد اليهود هو هامان وزير الملك الفارسي أحشوروش . وهنا مربط الفرس ، إذ يتساءل الحمقى : كيف انتقل هامان من قصر الملك الفارسي إلى قصر فرعون في مصر متقدما هكذا في التاريخ مئات السنين ؟ فانظروا بالله إلى هذه الوقاحة التي تبهت أن تحاكم الحق إلى الباطل ! ترى أين الدليل على أن هامان كان وزيرا أصلا لأحشوروش ؟ لقد ذكر القرآن أن هامان كان يشترك مع فرعون في اضطهاد بنى إسرائيل في مصر ، وأغلب الظن أن كاتب السفر قد خلط بين وقائع اضطهاد اليهود في مصر ووقائع مشابهة في فارس القديمة فذكر هامان مع أحشوروش . لا تنس ، أيها القارئ الكريم ، ما قاله علماء القوم أنفسهم من أن سفر «أستير» هو مجرد قصة «خيالية» لا يطمأن إلى صحتها

ثم إن في الكتاب المقدس وغيره من كتب هؤلاء الناس أخطاءً قاتلة في الأسماء والتواريخ بحيث تُضحي محاولة اتخاذه معيارا في هذه القضية هي الهزل بعينه . لقد ذكرنا قبلا أن لحمي موسى عليه السلام في الكتاب المقدس ثلاثة أسماء ، كما أشرنا إلى ما جاء فيه

من أن المسيح عندما يولد سيكون اسمه «سمانوثيل» ، وهو ما لم يحدث ، إذ لم تسع أمه أو غيرها من أهل الكتاب أو من أهل القرآن أو من أية طائفة أخرى بهذا الاسم . وفي العهد العتيق أيضا أن هارون أكبر من موسى بثلاثة أعوام^(١) ، على حين أنه قد أشار بكل وضوح قبل ذلك بصفحات أن موسى هو أول من وُلِدَ لأبيه^(٢) . ترى أى الروايتين نصدّق ؟ وفيه أيضا أن إسماعيل وُلِدَ لإبراهيم قبل إسحاق بأعوام ، ومع هذا نفاجأ بعد قليل بأن إسحاق هو وحيد لإبراهيم عليه السلام رغم أن إسماعيل كان حيا آنذاك وبعد ذلك بعشرات الأعوام^(٣) . مرة أخرى نساءل . أى الكلامين نصدّق ؟ وهل يمكن أن يكون هذا التناقض الفجّ وحيا سماويا ؟^(٤)

(١) خروج ٧ / ٧ / ٧ .

(٢) خروج ١ / ٢ / ١ وما بعدها .

(٣) تكوين ١١ / ١٦ / ١ وما بعدها ، و ١٥ / ١٧ وما بعدها ، و ٢ / ٢٢ .

(٤) وفي سفر «أخبار الأيام الثاني» ، طبقاً للترجمة البروتستانتية ، أن يهورام كان عمره حين ارتقى سدة الملك اثنين وثلاثين عاما ، وظل يحكم ثمانية أعوام ثم مات ، وهو ما يعنى أنه مات عن أربعين عاما . ثم يباغتنا كاتب السفر عقب ذلك بأن ابنه أخذه ، الذى تولى الملك بعده على الفور ، كان عمره حينئذ اثنين وأربعين عاما . وليس لهذا من معنى إلا أن الولد كان أكبر من أبيه بمائتين . وذلك لاجتزاء لا فى عقل معتوه أو مسكران (أخبار الأيام الثاني / ٢١ / ٣٠ ، و ٢٢ / ١-٢ . أما فى الترجمة الكاثوليكية فقد عثروا بالنص الأصلي بحيث أصبح عمر الابن عند توليه الحكم ثمانية عشر عاما فقط ! . وفى =

وحتى لو كان هامان فعلا وزيرا لأحشوروش الملك القارسي ،
فهل لمة ما يمنع أن يكون هناك شخص آخر اسمه «هامان» في مصر
قبل ذلك ؟ أم ترى هناك قانون حتمى يفرض أن يختص كل اسم
بشخص واحد أو مكان واحد لا يعدوه ؟ إن هناك أكثر من مدينة في
العالم اسمها « Cairo » ، وأكثر من مدينة اسمها «الإسكندرية» ،
وهناك مكانان على الأقل كل منهما يسمى «باريس» : عاصمة
فرنسا ، وقرية مجهولة في صحراء مصر الغربية لولا أن د. أحمد أمين
قد ذكرها في كتابه «حياتي» لما علم بها أحد. وهناك الزعيم الروسى
«لينين» والكتاب المسرحى المصرى «لينين الرملى» ، وهناك «فرعون»
مصر المذكور فى القرآن و «فرعون» آخر جاء بعده بألاف السنين هو
جدّ «رشاد فرعون» أحد رجال الحاشية فى عهد الملك عبد العزيز آل
سعود ، وهناك «رمسيس» أحد ملوك مصر القديمة و «رمسيس» رسام
الكاريكاتير المعروف فى مصر ، وهناك «حيرم» ملك صور و «حيرم

= سلسلة نسب المسيح عليه السلام اضطراب وخبط شتيع بين رواية الإنجيل
المنسوب إلى متى والإنجيل المنسوب إلى لوقا على ما هو معروف عند قارئى
المعهد الجليلي (متى ١٧ - ١٧/١ ، ولوقا ٤١/٢ - ٤٨) . ولا أريد أن أمضى
مع هذه المضحكات ، وإلا فسوف يطول الكلام ! وهذا هو الكتاب الذى
يحتاجون قرأنا به ، فيا للوقاحة وجمود الوجه !

الغمرأوى، كاتب الأغاني المصرى فى عصرنا ... إلخ ... إلخ .

وفى الكتاب المقدس نفسه تكرر ظاهرة اشتراك شخصين أو أكثر فى نفس الاسم مع ما يفصل بينهما من الأزمان الطويلة ، مثل «يهوديت» المذكورة فى سفر «التكوين» و «يهوديت» صاحبة السفر المشهور فى ذلك الكتاب ، و «أليعازر» بن هارون و «أليعازر» المذكور فى سفر «المكائين الثانى» ، و «إسماعيل» بن إبراهيم عليهما السلام و «إسماعيل» بن آصيل فى سفر «أخبار الأيام الأول» ، و «يوسف» النبى و «يوسف» النجار ، و «المسيح» شاول و «المسيح» عيسى بن مريم ... إلخ ... إلخ ، فلماذا الإصرار إذن على أن «هامان» لا يمكن أن يكون إلا شخصاً واحداً فحسب هو وزير أحشوروش ، مع أن السفر الذى ورد فيه هذا الاسم لا يمكن أن يكون إلا من بُنيت الخيال ؟

وفى التلمود نصّ يصف هامان وقارون بأنهما أغنى رجلين فى الدنيا^(١) ، وهذا الربط بين ذينك الشخصين له دلالة التى لا تخفى ولا يُعقل أن يكون هامان هنا هو الوزير الفارسى (إن كان لذلك الوزير وجود حقيقى) ، إذ لا علاقة بينه وبين قارون تسوّغ ذكرهما معا فى هذا السياق ، وهو يذكّرنا بالربط بينهما فى سورة «القصص» . وما

(1) E.J. Brill's First Encyclopaedia of Islam, Vol. III, P. 245.

يؤكد صحة ما جاء القرآن عن هامان أن هذا الاسم موجود في
البرديات المصرية^(١) بما يدل على أنه اسم مصري وبخمس الطلائين
الجهال الذين يفكرون بأستهم دون عقولهم !

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من الممكن جداً أن تكون قصة
أستير في الأصل أسطورة بابلية أخذها اليهود وحرّفوها لتوائم أغراضهم:
فهامان اسم أحد الآلهة العيلاميين ، ومردكاي اسم إله كلداني ، أما
اسم أستير فليس يبعد أن يكون تحويراً للإلهة عشتار ، التي يُنطق
اسمها أيضاً «أستير» و«أشتار» و«عشتروت»^(٢).

لهذا كله نستغرب أن يُقدّم ذلك الأحمق على التهكم بالقرآن
الكريم وليس في يده من دليل إلا هذا الهراء الذي سطره مؤلف سفر
«أستير» ، زاعماً أنه تاريخ وثيق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه . على أن هناك برهاناً آخر في غاية الأهمية يؤكد هذا الذي
قلناه في المقارنة بين ما جاء في القرآن الكريم والعهد العتيق عن هامان ،
هو أنه ما من مرة قارناً فيها بين الكتابين إلا واتضح بجلاء تام أن الحق
في صف القرآن . ولناخذ مثلاً الملاحظات التالية التي سأحصرها في

(١) انظر د. عبد الجليل شلبي / ردّ مفترقات على الإسلام / دار القلم /

الكرنت / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) خروج / ١ / ١٠ - ١٠ .

قصة موسى وهارون لصلتها بهامان : فالعهد العتيق يقول إن أم موسى قد وضعت وليدها فى التابوت (أو «السَّفَط» كما يسمونه) وظلت تحمله إلى أن وصلت قبالة قصر فرعون فوضعت بين الحلفاء حيث عثرت عليه ابنة فرعون فأخذته . أى أن التابوت لم يوضع فى الماء رغم أن كاتب سفر «الخروج» يقول إن أم موسى قد طلت السَّفَط بالزفت والحمر بما يدل على أنها قد أعدته لتضعه فى النهر ورغم أن ابنة فرعون تقول بعد ذلك بأسطر قليلة إنها انتشلتها من الماء ^(١) ، أما القرآن الكريم فقد ذكر منذ البداية أن التابوت قد وُضِعَ فى الماء قولاً واحداً .

كذلك فالعهد العتيق ينسب إلى موسى عليه السلام قتل المصرى عن عمد وقسوة ، على حين يؤكد القرآن أنه كان قتلاً خطأ لم يقصده موسى ، بل كانت نيته ردع الظالم عن بغيه على الضعيف ، وهذا هو الأليق بأخلاق من اصطفاه الله ورواه على عينه كى يجعل منه رسولا ، أما ما قاله ملفق سفر «الخروج» فهو أشبه ما يكون بطبائع عثة المجرمين أصحاب القلوب الجاسية التى لا تعرف الرحمة ولا الندم ^(٢) .

(١) خروج ١ / ٢ - ١٠ .

(٢) خروج ١١ / ٢ - ١٢ .

وبالنسبة لمعجزة اليد فإن العهد العتيق يؤكد أن يد موسى ، عند وَضْعِهِ لِيَاكُفِي عَيْنَيْهِ ثُمَّ إِخْرَاجُهَا ، كانت تستحيل «برصاء كالثلج»^(١) ، أما القرآن فيقول إنها كانت تصير «بيضاء من غير سوء» . وواضح أن القرآن الكريم ، بهذا التذييل الأخير ، يريد أن يرد على تهمة البرص ، الذي لا يصلح بحال من الأحوال أن يُتَّخَذَ معجزة لأن المعجزة إنما جُعِلَتْ لجذب الناس إلى صاحبها لا لتفجيرهم منه وصرْفهم عنه وإشعارهم أنه مغضوب عليه من الله .

كذلك لا يمكن أن يكون ردُّ موسى على ربه ، عندما اصطفاه وأمره بالذهاب إلى فرعون ، بهذه الخشونة والجلافة التي وردت في العهد العتيق ، إذ يجيب ربه قائلا حسيما جاء في الترجمة البروتستانتية: «استمع أيها السيد . لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبديك ، بل أنا ثقيل الفهم واللسان» ، و «استمع أيها السيد ... أرسل يدي من ترسل» ، حتى لقد «حَمَى غضب الرب على موسى» كما يقول المؤلف الكذاب^(٢) . أما القرآن فيصوّره عليه السلام عبدا خاشعا مُخْبِتًا لربه شاعرا بالمنة الإلهية

(١) خروج ١٧/٣١ .

(٢) خروج ١٠/٤١ - ١٤ . أما في الترجمة الكاثوليكية فقد عملوا على التلطيف من هذه الجلافة .

التي اقتضت اختياره رسولا إلى بنى إسرائيل ، وهذا هو الذى يتلاءم مع أخلاق النبيين .

وعلى خلاف القرآن الكريم ، الذى يجعل من هارون نبيا مع موسى ووزيرا وعضدا له وردءا يصدقه ، نرى مؤلف سفر «الخروج» يجعل منه «نبيا لموسى» لا «نبيا معه» ، ويجعل من موسى «إلهها لفرعون»^(١) ، ولا أظن أن هناك من يخالف فى أن ما ذكره العهد العتيق هو السخف بل الكفر ، والعياذ بالله !

ويزعم سفر «الخروج» أن الله كان يكلم موسى «وجها لوجه كما يكلم المرء صاحبه»^(٢) ، وهو ما يتعارض مع ما جاء فى القرآن الكريم من أنه عليه السلام حين طلب من ربه أن يمكثه من النظر إليه ردَّ سبحانه قائلا : «لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقرَّ مكانه فسوف ترانى . فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكًا وخرَّ موسى صَعِقًا»^(٣) . وهذا هو الذى يقبله المنطق ، إذ كيف تستطيع حواسنا الكليّة المحدودة أن ترى الله الرهيب الذى لا تحدُّ حدود ؟

(١) خروج ١ / ٧ .

(٢) خروج ١١ / ٣٣ .

(٣) الأعراف ١٤٣ .

ومن طوائف العهد العتيق أيضا اتهام كاتب سفر «الخروج» لهارون عليه السلام بأنه هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل وتى كذلك لعبادته مذبحا حيث أخذ بنو إسرائيل ، أثناء غياب موسى للقاء ربه فوق الجبل ، يدورون حوله عراة كما ولدتهم أمهاتهم وهم يرقصون^(١) . وهى شئنة يهودية أصيلة فى الافتراء على رسل الله الكرام والصاق أشنع التهم بهم تلذذا بتشويه كل صورة إنسانية نبيلة . وعلى العكس من ذلك القرآن الكريم ، الذى يؤكد أن صانع العجل هو السامرى ، أما هارون فقد حاول الوقوف فى وجه هذه الفتنة التى لقيت من بنى قومه التحمس والتهاقت ، إلا أنهم ظلوا فى غيهم سادرين . وفوق ذلك قرواية سفر «الخروج» تتناقض مع نفسها تناقضا أبلغ ، إذ تقول إن موسى قد أمر بنى لاوى (وهو واحد منهم) أن يقتلوا جميع ذريتهم وأصدقاءهم وأهل محلتهم الذين اقترفوا خطيئة عبادة العجل ، وأن محصلة القتل كانت ثلاثة آلاف نفس^(٢) ، إذ يثور هنا (كما يقول أبو الأعلى المودودى) سؤال هام هو : لماذا لم يقتل هارون أيضا إذا كان هو صاحب عبادة العجل ؟^(٣)

(١) خروج ١ / ٣٢ - ٦ ، ١٧ - ٢٠ .

(٢) خروج ٢٧ / ٣٢ - ٢٩ .

(1) S.A.A.Maududi, The Meaning of the Qur'ân, Islamic Publication Ltd., Lahore, 1978, Vol. VII, P. 116.

ويغيباءٍ منقطع النظير سببه الجهل والحقد والعناد يزعم العبد
 القاضى أن فى كلام القرآن عن نهاية فرعون تناقضا ، إذ يقول
 سبحانه فى سورة «القصص» ٤٠/ : «فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى
 الْيَمِّ» ، بينما يقول فى سورة «يونس» ٩١/ - ٩٢ مخاطبا فرعون عندما
 أدركه الفرق قصاح معلنا لإيمانه : «الآن وقد عصيت قبلُ وكنتَ من
 المفسدين ؟ * فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَن خَلَقَكَ آيَةً» ، فيظن
 الجاهل أنه عز وجل قد نَجَّى فرعون من الموت ! متى قال القرآن
 ذلك ؟ وأين ؟ واضح أنه قد فهم من قوله جل جلاله : «فالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ
 بِيَدِنَا» أن فرعون لم يمت . فهل هذا هو ما تقوله العبارة ؟ إن معنى
 الكلام فى الآية أن الله وعد بأن يطرح البحرُ جثته على الشاطئِ
 فلا تأكلها الحيتان والأسماك فى قاعه حتى يكون عبرة لمن وراءه ، أما
 لو كان المقصود هو أن الله سينقذه من الغرق ويعيده إلى مصر كأن
 شيئا لم يكن فإنه لن يكون عبرة لغيره بل فتنة ، إذ ها هو ذا يعود ،
 بعد كل كفره وضلاله وبغيه وتآلهه ، إلى سلطانه وهيلمانه كرة
 أخرى !

وهذا هو الذى يقوله العهد العتيق أيضا ، بيد أن الجهل والحقد
 والعناد هو الذى صرف عيني الأبعد عنه فلم يقرأ ما جاء فيه عن لفظ

البحر أبدانَ فرعون وجنوده بعد غرقهم ، إذ قال مؤلف سفر
 «الحكمة» : «وَعَبَّرَتْ بِهِمْ (أى عبرتُ الله بينى لإسرائيل)» البحر
 الأحمر وأجازتهم المياه الغزيرة . أما أعداؤهم فأغرقتهم ثم قذفتهم من
 عمق الغمار على الشاطئ»^(١) . ومن قبله قال مؤلف سفر «الخروج» :
 «فَفَرَّقَ الرَّبُّ الْمَصْرِيِّينَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ ، وَرَجَعَتِ الْمِيَاهُ فَغَطَّتْ مُرَاكِبَ
 وَفُرْسَانَ جَمِيعِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ الدَّاحِلِينَ وَرَاءَهُمْ فِي الْبَحْرِ ، وَلَمْ يَبْقَ
 مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَسَارَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى تَيْبَسَ فِي وَسْطِ الْبَحْرِ ، وَالْمَاءُ لَهُمْ
 سَوْرٌ عَنْ يَمِينِهِمْ وَعَنْ شِمَالِهِمْ . وَخَلَّصَ الرَّبُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِسْرَائِيلَ
 مِنْ أَيْدِي الْمَصْرِيِّينَ ، وَرَأَى إِسْرَائِيلُ الْمَصْرِيِّينَ أَمْوَاتًا عَلَى شَاطِئِ
 الْبَحْرِ»^(٢) . ترى أفهم الأبعد أم على قلوب أقبالها؟

ومع العبد الفاضى نحضى فنتناول اعتراضه حول قارون ، الذى
 ذكر القرآن أن الله أرسل إليه هو وفرعون وهامان نبيه موسى عليه
 السلام فكذبوا واستكبروا وأمروا بتقتيل الأطفال الذكور من بنى
 إسرائيل ، حيث جاء فى سورة «العنكبوت» / ٣٩ : «وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ
 وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَمَا

(١) حكمة / ١٨/١٠ - ١٩ .

(٢) خروج / ٢٧/١٤ - ٢٩ .

كانوا سابقين ، كما جاء في سورة «غافر» ٢٣/ - ٢٥ : «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا : ساحرٌ كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم . وما كيد الكافرين إلا في ضلال . أما اعتراض الأحييمق فهذا نصه : «يتبادر إلى الذهن من هذه الآيات أن قارون وهامان مصريان من قوم فرعون وأنهما مع فرعون قاوموا موسى في مصر . ولكن هذا خطأ لأن قارون إسرائيلي لا مصري ، ومن قوم موسى لا من قوم فرعون كما جاء في سورة «القصص» ٧٦/ : إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم» (ص ٢٩) .

هذا ما قاله القبي النزيق ، وأنا أرجو القارئ أن يرجع إلى الآيتين الأوليين ويتفكر فيهما النظر ثم يجيب على السؤال التالي : هل ذكر القرآن فيهما أو أوحى مجرد إيهاء أن قارون مصري حتى يقال إنه قد تناقض مع نفسه حين ذكر في آية «القصص» أنه من قوم موسى ؟ إن كثيرا من الناس ينشقون على أبناء طائفتهم وينضمون إلى أعدائهم ويكونون في خدمتهم ، وبخاصة حين تكون مصالحهم مع هؤلاء الأعداء^(١) . وقد كان قارون فاحش الثراء ، وأغلب الظن أن هذا الثراء

(١) مثلما فعل خونة العراق منذ شهر !

سببه انجازه إلى فرعون وملكه وتغانيه في خدمتهم وتعاونهم معهم . فما المشكلة في ذلك ؟ المشكلة في الواقع هي في عقل هذا الأحمق لا في النصوص القرآنية البريئة التي يقولها الغبي ما ليس فيها .

ومما له صلة بموضوعنا واعترض به الطائش على الوحي الإلهي قوله إن القرآن قد ذكر أن الذي صنع العجل لبني إسرائيل في التيه هو السامري ، على حين أن هارون هو الذي عمل هذا العجل بناءً على طلب قومه ، أما السامري فكيف يمكن أن يصنعه قبل أن يكون للسامريين وجود ؟ (ص ٣٠) . يقصد أن «السامري» نسبة إلى السامرة، التي لم تكن إلا بعد ذلك بزمان طويل .

لكن من قال إن «السامري» لا يمكن أن يكون إلا من أهل السامرة ؟ هل هناك أولاً ما يقطع بأن «الياء» في هذا الاسم هي للنسب ؟ ألا يمكن أن تكون في لغتها كالياء عندنا في «كرسى» و«زبني» و«بردي» مثلاً ؟ ثم إن هذا الاسم قد يكون تحريفاً لكلمة «شومر» العبرية بمعنى «حارس أو خفير أو سمير»^(١) . أما إذا كانت

(1) Abdullah Yusuf Ali, The Holy Qur'an, Dar Al-Arabia, Beirut, P. 807, N. 2650.

الباء للنسب فقد تكون النسبة إلى « سامر » صاحب الجبل الذى أقيمت عليه مدينة « السامرة » فيما بعد^(١) ، أو إلى « شيمر » (بالإمالة) ، وهو اسم مصرى بمعنى « غريب » لا يزال حتى الآن منتشرا فى مصر بعد تعريبه ، أو إلى أى مكان آخر فى أرض الكنانة أو غيرها ، إذ قد تعدد الأمكنة والأشخاص ، والاسم واحد ، وذلك مثل جبل الكرمل ، الذى كان اسما لجبلين مختلفين على حسب ما يقوله شراح العهد العتيق أنفسهم : أحدهما على البحر المتوسط ، والآخر فى أرض يهوذا^(٢) . أم إنه حلال لهم وحرام علينا ؟ ويرى عبد الله يوسف على أن من المحتمل أن تكون طائفة « السامريين » هى المنسوبة إلى « السامرى » لا العكس^(٣) .

(١) أخبار الملوك الثالث / ٢٣/١٦ - ٢٤ .

(٢) انظر حواشى العهد العتيق على الترجمة الكاثوليكية للكتاب المقدس / ١٣ .
وهناك مثال صفح آخر هو لقب « الناصرى » ، الذى يمكن لأى دعى جهول أن يعترض على اللقب السيد المسيح به بحجة أن « الناصريين » لم يظهروا إلا فى العصر الحديث بعد أن أصبح جمال عبدالناصر حاكما لمصر وصارت له طريقة تسمى « الناصرية » وأتباع يسمون « الناصريين » . لكن مثل ذلك الدعى الجهول قد فاته أن فى فلسطين مدينة قديمة تسمى « الناصرة » ينسب إليها المسيح عليه السلام .

(3) Abdullah Yusuf Ali , The Holy Qur'an, P. 808, N. 2608

وإن تعجب فعجب أن يأنس هذا الببغاء الجرأة في نفسه فيهاجم القرآن فيما لا مجال فيه للطعن ويَعْمَى عن المشكلة التي تثيرها «أرض عوص» الوارد ذكرها في مطلع سفر «أيوب» بوصفها البلد الذي كان يسكنه ذلك الرجل . لقد وقف المفسرون الكتابيون حيارى لا يستطيعون تحديد «عوص» هذا، إذ «ورد في سلسلة المتقدمين ثلاثة يحملون هذا الاسم : أحدهم عوص بن أرام ، والثاني عوص بن ناحور ، والثالث عوص بن ديثان ، فلا يُعْلَمُ أيهم المراد بنسبة هذه الأرض إليه ، بل إن موضع هذه الأرض غير معروف على وجه الدقة^(١) . كما أن اسم «سمعان القيرواني» المعاصر للسيد المسيح في فلسطين يشير مشكلة أعقد من هذه كثيرا ، إذ أين سميحان هذا من «القيروان» المنسوب إليها ، وهي من بلاد تونس البعيدة التي تفصلها عن فلسطين أماد شاسعة ، ولم تُبَيَّنْ إلا بعد ذلك يقرون على يد عَقْبَة بن نافع سنة ٧٦٢م^(٢) ؟

وقبل ذلك كله كيف يمكن أن يَتَّهَمَ عاقل هارون عليه السلام بأنه هو صانع العجل ، وهو نبي كريم أرسله الله للدعوة إلى الوحدةانية؟

(١) انظر حواشي العهد العتيق الملحق بالترجمة الكاثوليكية / ١٥ .

(٢) انظر مادة «القيروان» مثلا في «الموسوعة الثقافية» / دار المرفعة / ١٩٧٢م، و«موسوعة المورد العربية» لمثير الجليلي / دار العلم للملايين / ١٩٩٠م .

إن ذلك الاتهام ليس له من معنى سوى أنه سبحانه لم يحسن الاختيار ،
إذ انتقى شخصا لتأدية مهمة ما ، فإذا به يرسب في أول امتحان ، ثم
هو مع ذلك يظل متمسكا به بل يأمر بقتل كل من اشترك في عبادة
العجل ويُعفى الرأس الأكبر الذى تولى كِبَر الجريمة فصنع العجل وبني
له المذبح وأشرف على عملية الطواف والرقص العارى حوله فى صحب
وعُهر ! ولكن متى كان للقوم عقول يفكرون بها أو حتى آذان
يسمعون بها ؟ (١)

ومُضيا مع تطعمه يقتل العبد الفاضى مشكلة من لامشكلة ، إذ
يقول : « جاء فى سورة « القصص » ٧٦ / ، ٨١ : « إن قارون كان من
قوم موسى فبغى عليهم ... فخسفنا به وبداره الأرض » ، فما كان له من
فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المتتصرين » ، ومعروف أن
قارون القرآن هو كروموس ملك ليديا (٥٦٠ - ٥٤٦ ق. م) ، وهو
عَلَّم على الغنى بين العرب وغيرهم . ولا يوجد ما يَسرر خلطه بقورح
الذى ورد ذكره فى التوراة ، فلا علاقة لقارون بقورح الذى ثار مع

(١) يمكن للقارئ أن يجد معالجة مستفيضة لهذه القضية فى كتابي «سورة
طه - دراسة لغوية أسلوبية مقارنة / دار النهضة العربية / ١٤١٦هـ -
١٩٩٥م / ٤٠ - ٤٩ .

داثان وأيرام على موسى قفتحت الأرض فاها وابتلعتهم (العدد/ ١٦) ،
(ص ٤٧) .

وكتبنا لهذه الفضلات الفكرية نظرح السؤال التالي : من قال لهذا
المتنطع إن القرآن بحدیثه عن قارون هنا إنما یقصد كروسوس ملك
لیدیا ؟ هل أطلعه الله على مراده وصرح له بأنه ، وإن قال فی الآیه
الكریمة إنه كان من قوم موسى ، فهو لا یقصد ذلك فعلا بل هدفه
تضلیل أتباع محمد ، أما الصواب فهو أنه الملك كروسوس ؟ لقد عبث
القوم بكتبهم وألقوا كلاما سخیفا وعزوه إلى الله ، والآن یحسبون
بجهلهم أنهم يستطيعون أن یلعبوا نفس اللعبة القذرة مع القرآن الكریم !
لقد قال الله تعالى : « إن قارون كان من قوم موسى » ، ثم ذكر بقیه
على قومه وكيف انتهى أمره بأن خسف الله به وبادره الأرض وجعله
عبرة لمن یعتبر . وهذه القصة موجودة فی العهد العتیق ، وإن لم ینسب
مؤلفها ثمرد قارون إلى كثرة كنوزه بل إلى رغبته فی مشاركة هارون
الکهنانة . والمعروف أن كتب القوم قد ضاعت بعد موسى بأجیال
وكتبها لهم عزرا من الذاکرة ، أما القرآن فكان یسجل غضبا فور نزوله ،
ولم یضع منه شیء البتة . وقد رأینا فیما مضى من صفحات أمثلة كافية
لأخطاء العهد العتیق وتناقضاته ، وما من مرة قامت فیها مقارنة بین
وبین القرآن فیما یوجد قیه دلیل قاطع إلا وكان الفلج للقرآن ، فلماذا

يأتي الأحق بعد ذلك كله إذن ويقول ما قال ؟ أهو مجرد عناد والسلام ؟ وإذا كان القرآن يقصد كروسوس ملك ليديا ، فما الذي منعه من أن يقول ذلك يا ترى ؟

ومن اعتراضات جاهلنا أيضًا اعتراضه على ما جاء في سورة
(ص / ٥٥ من قول الحق تبارك وتعالى لأَيُّوب عليه السلام : « وَخُذْ
بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ » ، إذ يعلق الغبي قائلا : « قال
البيضاوي : « الضَّغْتُ : الحزمة الصغيرة من الحشيش ونحوه . فاضرب
به ولا تحنث : روى أن زوجة أيوب ليًا بنت يعقوب (وقيل : رحمة
بنت أفرام بن يوسف) ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف إن برئ
يضربها مائة ضربة ، فحلل الله يمينه بذاك . وهي رخصة باقية في
الحدود . ونحن نسأل : كيف يصح لأَيُّوب البار الصبور على ضياع
أولاده وعبيده ومواشيهِ أن يغضب على زوجته ، وهو المشهود له في
التوراة باللطف والحلم ، وخاصة مع زوجته ، إذ قال لها : تتكلمين
كلما كما إحدى الجاهلات ! أَلْخَيْرَ نَقِيلَ مِنَ اللَّهِ ، وَالشَّرَّ لَا نَقِيلُ ؟
(أيوب / ١٠ / ٢) ؟ وكيف يصح لأَيُّوب أن يتوعد زوجته بالضرب
مائة ضربة لمجرد إبطائها ؟ وكيف يحلف ليضربها مائة سوط فينصحه

الله أن يأخذ حزمة فيها مائة عود يضربها بها ضربة واحدة فلا تقع
بيمينه ؟ وأين أيوب من يعقوب حتى يتزوج ابنته أو من يوسف حتى
يتزوج حفيده ؟ والمعروف أن أيوب سابق ليعقوب ويوسف تاريخيا .
وهذه القصة موجودة في خرافات اليهود القدماء (ص ٥٦) .

ونبدأ بخاتمة ما قال ، ومفهوم الجملة الأخيرة من كلامه أن ما
جاء في العهد العتيق عن أيوب هو الحق الذي لا مرية فيه ، على
عكس خرافات اليهود القدماء عن حلفه لِيَضْرِبَنَّ ... إلخ . ولكن ماذا
قال عنه العهد العتيق ؟ في مطلع الفصل الثاني والأربعين مثلا من
«سفر أيوب» تجده يقول إنه كان «قد سمع الله من قبل بأذنه» فلم
يقنع بما قاله له ، أما الآن وبعد أن «رأته عيناه» فإنه يرجع عما قاله من
تجديفات في حقه سبحانه ويندم ندما شديدا . وإنتا لنسأل : أيمكن أن
يرى أى شخص الله سبحانه ؟ يجيب العهد العتيق على هذا السؤال
بأن موسى حين طلب من ربه فوق الجبل أن يريه مجده كان رده
سبحانه وتعالى : «أنا وجهى فلا تستطيع أن تراه لأنه لا يرانى إنسان
ويعيش» ، وإن كان ملقوا ذلك الكتاب قد أضافوا ببلاهة لا تخلو من
القكاهة أن الله قد استمر قائلا : «هو ذا عندى موضع . قف علم
الصخرة ، ويكون إذا مر مجدى أنى أجعلك فى نفرة الصخرة وأظا ك

يبدى حتى أجتاز ، ثم أزيل يدي فتتظر قفاى ، أما وجهى فلا ترى^(١) . وهى حيلة ظريفة للالتفاف حول القانون الإلهى الذى يستحيل بناءً عليه رؤية الله ، إذ ما علينا عندما نعلم باقتراب مرور الله من أمامنا إلا أن نضع أيدينا على عيوننا أو ننظر إلى الجهة المقابلة ، حتى إذا ما تيقنا من مروره سارعنا فأبصرنا قفاه ! لكن قات الأبله مؤلف هذه القصة أن يصف قفاه سبحانه ! وعلى أية حال فإن العهد القديم كعادته يناقض نفسه فى هذه القضية ، إذ يقول فى موضع آخر إن موسى « كان يكلمه الرب وجها لوجه كما يكلم المرء صاحبه »^(٢) . وهذا طبعاً هو الكلام غير الأخراقى !

أما ما قاله البيضاوى أو غيره عن نسب زوجة أيوب فهو كلام من الكلام إن أصاب فيها ونعمت ، وإلا فالخطأ خطؤه هو ، ولا مدخل للقرآن فى ذلك ، ومن ثم لست أفهم كيف يحمل جاهلنا القرآن الكريم ما قاله البيضاوى رحمة الله عليه . كذلك لم يقل لنا القرآن شيئاً عن تفصيلات الضغث الذى أمر الله أيوب أن يأخذه ويضرب به حتى لا يحث ، وعلى ذلك فلا داعى لإثارة زوعدة حول هذه النقطة دون داع . وحتى لو افترضنا أن المقصود هو ضرب زوجته بهذا

(١) خروج ١٨/٣٣ - ٢٢ .

(٢) خروج ١١/٣٣ .

الضغث ، فما وجه العيب في الحل الذي قدّمه الله له ؟ لقد حلف الرجل أن يضرب زوجته ، فدله الله على طريقة يتفدّ بها قسمه دون أن يؤلم شريكه عمره ، فما الخطأ في هذا ؟ ثم إن هذا الجزء من قصة أيوب غير موجود في العهد العتيق ، فلم يسارع ذلك الجاهل بتكذيبه ، وبخاصة أنه غير موجود أيضا في القرآن الكريم ؟ إن هذا كله عراك في غير معترك !

وكان الجاهل قد أورد كلام أيوب لزوجته طبقا لرواية العهد العتيق بوصفه دليلا على برّ أيوب وصبره أمام بلواه ، وكذلك على لطفه وحلمه مع زوجته ، مع أن بقية ذلك الكلام نفسه تنبئ عن حدة وعنف في معاملته لها حيث يصف كلامها بأنه ككلام إحدى الجاهلات^(١) . ثم إن ما قالته هذه الزوجة لزوجها ليستحق ما هو أقسى من الحلف بضربها مائة ضربة ، إذ استغربت صبره وقماسكه أمام محنته وحاولت إغراءه بالتجديف على الله حتى يموت ويستريح . وهذا نص ما قالت : «ألى الآن أنت معتصم بسلامتك ؟ جدّف على الله ومُت»^(٢) .

ولقد جدّف أيوب (أيوب العهد القديم لا أيوب النبي الكريم الذي نؤمن به نحن المسلمون) ، وتمرد على ربه ، ولعن اليوم الذي وُلد

(١) في الترجمة الكاثوليكية : « ككلام إحدى السفهات »

(٢) سفر أيوب / ٩/٢ .

فيه ، وسُخِرَ من القضاء الإلهي الذي يصبُّ الشقاء على الأبرار ويخمر
الفجرة بألوان النعم والسعادة ، وتمنى لو كان هناك قاضي يحتكم هو
والله إليه حتى يتبين لله ظلمه وخطؤه ، وأخذ يتوح نواحيا متصلا ،
وكلما حاول أحد أصدقائه تهدئته ولفت نظره إلى تجاوزاته مع الله
ازداد سخطا وتمردا ، وذلك على مدى عشرات الصفحات ، مع بعض
الفيثات القليلة إلى الرضا أثناء ذلك . أَفَمَنْ يتمرد ويجدف على ربه
على هذا النحو ، أَيْسَبَعْدُ أَنْ يحلف لِيَضْرِبَنَّ امرأته لإبطائها عليه ؟ لا
نفس أنه لا العهد العتيق ولا القرآن الكريم قد تعرض لهذه التفصيلة ،
ولكنني أردت أن أبين للقارئ سخف المنطق الذي سَوَّلَ لجاهلنا
المسارعة إلى الاعتراض على البيضاوى .

وأخيرا وليس آخرا فإن الجاهل يحتاج البيضاوى بأن «أيوب سابق
ليعقوب ويوسف تاريخيا» ، كما أن مؤلف سفر «أيوب» يذكر أنه كان
يسكن فى أرض عوص ، التى تقول حواشى العهد العتيق الملحق به
فى الترجمة الكاثوليكية إنها كانت مجاورة لأرض يهوذا ، أى أنها
كانت جزءا من أرض فلسطين . والآن فى ضوء كلام جاهلنا وما جاء
فى حواشى العهد العتيق نتساءل : كيف يقول كاتب سفر «أيوب» إذن
إن أهل سبأ قد هجموا على بهائم أيوب وقتلوا عبيده واستاقوا الإبل

أمامهم^(١) ؟ أين أهل سبأ من فلسطين ، وبالذات في ذلك الزمن المוגل في القدم حين كانت وسائل المواصلات بدائية وشديدة البطء ؟ لقد كانت سبأ في بلاد اليمن ، وبينها وبين فلسطين مسافات صحراوية رهبة ، فكيف يأتي الرعاة منها ليهجموا على مواشى أيوب في تلك الأزمان السحيقة التي كانت وسيلة السفر فيه هي الأقدام أو ظهور الجمال على أحسن تقدير ؟ وهذا لو كانت سبأ موجودة في ذلك الوقت ، يبد أن مملكة سبأ لم تظهر إلى الوجود إلا في القرن الثامن قبل الميلاد ، على حين أن يعقوب ، الذي يؤكد الأحمق الماتق أنه متأخر في الزمن عن أيوب ، كان يعيش في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، أي أنه كان باقيا على سبأ ، لكي يكون لها مكان على خريطة الوجود ، عشرة قرون أو تزيد^(٢) ! فتأمل واعجب أيها القارئ !

وبالنسبة لمريم عليها السلام يقول المنتطع الذي يصبر بغباء عجيب على أن يسعى بقدمه إلى هلاكه إن الآية ١٢ من «التحریم» قد ذكرت أن مريم هي ابنة عمران ، فكيف يصح ذلك ، والإنجيل يقول

(١) أيوب ١٤/١ - ١٥ .

(٢) انظر محمد فريد وجدي / دائرة معارف القرن العشرين / دار الفكر / بيروت /

ماتق «سبأ» و «إبراهيم» ، ومنير البعلبكي / موسوعة المورد العربية / مواد

«سبأ» و «إبراهيم» و «يعقوب» و «يوسف» .

إنها بنت هالى (لوقا ٢٣/٣) أم كيف يقول القرآن إنها بنت عمران
أبى موسى وإنها أخت هارون مع أن بينها وبين عمران وهارون ألفا
وستمائة سنة؟ (ص ٣٠) .

والواقع أن هذا الكلام لا مكان له إلا المرحاض ، وإليك البيان : أولاً
«الإنجيل» هو ما نزل على عيسى عليه السلام من وحى سماوى فبلغه
قومه لا هذه السير التى كتبها بعض المنتسبين إلى النصرانية بعد عشرات
السنين والتى يحوط الشك عند علمائهم أنفسهم شخصية مؤلفيها .
فحجّاج ذلك السفبه لنا إذن بأن الإنجيل قد قال كذا فى هذه
المسألة حجّاج باطل لأننا لا نؤمن باللاهية مصدر ما يسمّى بالإنجيل
مرقس أو لوقا ... إلخ ، لأن هذا الكلام إن كان هو يراه ملزماً فإنه لا
إلزام لنا فيه .

وهذا كله لو كان فى إنجيل لوقا أو غيره فعلا أن مريم هى بنت
هالى ، وهو ما لا وجود له ، أما المذكور فى ذلك الإنجيل فهو سلسلة
نسب المسيح ، وفيها أنه (على ما يظن أبناء قومه) ابن يوسف بن
عالى ... إلى آدم بن الله . ولا ذكر فيها البتة لمريم . فعلام يدل هذا ؟
يدل على واحدة من ثلاث : أن الأبعد جاهل أو كذاب أو أحمق
مجنون ! وليختر لنفسه الصفة التى يحب ، فلن نقف حائلين بينه

وبين ما يختار . ومع ذلك فعند النصارى رواية تقول إن مريم هي ابنة
يوآقيم ، إلا أن هذه الرواية ليست محل ثقتهم ^(١) . ومرة أخرى نتساءل :
علام يدل هذا ؟ ألا يدل على أن أمورهم كلها معجونة بماء
الاضطراب والشك ؟ فكيف بالله يجد مثل هذا الأحق في نفسه
البجاجة على تخطئة القرآن الكريم الذي لا يمكن أن يطوله الخطأ ؟

وفضلاً عن ذلك فإن القرآن لم يقل إن مريم هي بنت عمران أبى
موسى أو إنها أخت هارون أخى موسى ، بل كل ما جاء فيه أنها «مريم
ابنة عمران» فقط ، وأن قومها حينما جاءتهم حاملَةٌ وليدها ، ولم تكن
قد تزوجت ، قالوا لها : «يا أخت هارون ، ما كان أبوك أمراً سوءً ، وما
كانت أملك بغياً» ^(٢) ، أى أنها في القرآن هي أخت هارون ليس إلا ،

(1) Elizabeth Gidley Withy Combe, The Oxford Dictionary
of English Christian Names, Oxford, 1948, Art.
"Joachim", P.78.

(٢) ولهذا السبب أقدم جاك بيرك في ترجمة القرآن على تغيير اسم «مريم ابنة
عمران» إلى «مريم بنت يواقيم» . وقد بينت سخط صنيعة هذا في كتابي
«ترجمة جاك بيرك للقرآن الكريم بين المادحين والقادحين» (مكتبة زهراء
الشرق / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م / ٧٤ - ٧٥) . وبالنسبة فيوسف النجار ،
الذى ذكر لوقا أنه ابن عالى ، هو (حسب إنجيل متى) ابن يعقوب ، وسبحان
مبنيّ القل والنين ! (انظر متى / ١ / ١ - ١٦ ، ولوقا / ٣ / ٢٣ / ٢٨) .

والذى سماها كذلك ليس هو القرن بل قومها . فانظر بالله عليك إلى
هذا المدلس المفضوح الذى يتقول على القرآن الأكاذيب !

ثم إن القرآن مصدق فيما يقول ، وما دام قد قال إن مريم هى ابنة
عمران فلا بد أن تكون ابنة عمران فعلا ، وبخاصة أنه ليس عند
النصارى فى هذا الصدد سوى رواية تفتقر إلى الثقة كما ذكرنا . وقد
تكون تسميتها «ابنة عمران» هى تسمية مجازية كما سُمى يوسف
النجار (الذى يقولون إنه كان خطيبها) بـ «يوسف بن داود» على لسان
الله ذاته طبقا للإنجيل متى ، مع أن بين يوسف هذا وداود عليه السلام
نحو ثلاثين جيلا حسبما جاء فى ذلك الإنجيل نفسه ^(١) ، وكما سُمى
الأعمى (فى إنجيل لوقا) المسيح عليه السلام بـ «يسوع بن داود»
مرتين ^(٢) . وفى هذا الإنجيل أيضا نسمع غنيا معاصرا للمسيح ينادى
إبراهيم من الجحيم بـ «يا أبت» ، ويرد عليه إبراهيم قائلا: «يا ابنى» ^(٣) .
وبالمثل سُمى المسيح ذاته المرأة المنحنية الظاهر «ابنة إبراهيم» ^(٤) . أما

(١) متى / ١ / ١٦ - ٢٠ .

(٢) لوقا / ١٨ / ٢٨ - ٣٩ .

(٣) لوقا / ١٦ / ١٦ - ٢٥ .

(٤) لوقا / ١٣ / ١٦ .

البنوة لله فما أسهلها وما أرخصها في الكتاب المقدس = فإسرائيل ابنه
 البكر^(١) ، وداود أيضا ابنه البكر^(٢) ، وإفرائيم هو كذلك ابنه البكر^(٣) !
 وقد رأينا ما جاء في سلسلة نسب المسيح من أن آدم هو ابن الله ، ولن
 نسمى بطبيعة الحال ما يقوله النصارى عن عيسى وبنوته هو أيضا لله .
 وهناك ، فوق هذا كله ، « أبناء الله » التي أُطْلِقَتْ على ما لا أدرى
 كم من الجماعات المختلفة ! فيا أيها الأحقق ، ما دامت ذمتكم واسعة
 بهذا الشكل ، فلماذا تضيقون بتسمية مريم بـ « ابنة عمران » حتى لو
 كانت هذه تسمية مجازية ؟ وفي هذه الحال سيكون القرآن مجرد
 حاك لما كانوا ينادونها به حسب تقاليدهم في نسبة الشخص إلى جد له
 بعيد مشهور . بعضاً من حمرة الخجل يا عقل العصفور ! أما القول بأن
 فلانا أو علانا أو توتانا ابن لله فإن المسلمين لا يقدمون على مثل هذه
 الشبهة ، إذ هم يعرفون مقام الألوهية وما يجب لها من الإجلال
 والتوحيد !

(١) خروج ٢٢/٤ - ٣٢ .

(٢) مزامير / ٨٩ / ٢٦ - ٢٧ .

(٣) لرميا / ٣١ / ٩ .

وبأخذ العيد الفاضلي على القرآن ما يسميه «خلط الأسماء» حيث تقول الآيات ٨٤ - ٨٦ من سورة «الأنعام» عن إبراهيم عليه السلام : «ووهبنا له إسحاق ويعقوب كُلًّا هَدَيْنَا ، ونوحا هَدَيْنَا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزي المحسنين * وذكرها يحيى وعيسى وإلياس ، كُلٌّ من الصالحين * وإسماعيلَ وإِسْحَاقَ ويونسَ ولوطا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . ووجه اعتراض العبقرى الذى لم تلده ولادة فى السُخْفِ وضلال العقل أن ترتيب الأنبياء هنا لا يجرى على ترتيبهم التاريخي (ص ٣٦ - ٣٧) .

وهذا اعتراض لا معنى له أبدا ، قالقرآن لم يقل إن هذا هو ترتيبهم التاريخي ، ولم يستعمل فى العطف بين أسمائهم إلا «الواو» ، وهى حرف لمطلق الجمع ، أى لا تفيد ترتيبا ، بخلاف «ثم» و«الفاء» . فهذان سببان كافيان لإخراص المتنوع ، ومع هذا فإننا نسوق أيضا المعلومة التالية التى لو كان عنده ذرة من حساسية لانشقت الأرض بعدها وابتلعت كما ابتلعت قارون . يا أيها المتنوع ، قبل أن تقذف بيسوت الناس بالحجارة انظر إلى زجاج بيتك وخف عليه أن يفكر الآخرون فى الرد على حجارتك الطائشة التى لا تفيدك شيئا بحجر واحد يحطمه لك تحطيمًا ! وبيتك الزجاجي الذى أقصده هو أسفار الأنبياء فى العهد العتيق التى لا تخضع لأى ترتيب تاريخي رغم أن ذلك

الكتاب قائم على ترتيب الأحداث التي وقعت لبنى إسرائيل ترتيباً تاريخياً ، إذ وردت تلك الأسفار فيه على النحو التالي : أشعيا ثم إرميا ثم ياروك ثم حزقيال ثم دانيال ثم هوشع ثم يوثيل ثم عاموس ثم عوبديا ثم يونان ثم ميخا ثم ناحوم ثم حبقوق ثم صفنيا ثم هجاي ثم زكريا ثم ملاخي ، على حين أن الترتيب التاريخي هو عاموس ، هوشع ، أشعيا ، ميخا ، صفنيا ، ناحوم ، حبقوق ، إرميا ، حزقيال ، هجاي ، عوبديا ، زكريا ، يوثيل ، دانيال ، وهذا ليس كلامنا نحن بل كلام علمائكم^(١) .

ويستمر عقل العصفور في هجومه الصبياني الأخرق على القرآن الكريم فيتهمه بأنه مأخوذ من أقوال الحنفاء وأشعار امرئ القيس وقصص سلمان الفارسي وكتب جهلة اليهود والنصارى (ص ١٨٥) . ولو كان عنده هو والذين أزوه على هلاكه مسكة من عقل ما فتح هذا الباب الذي إنما يفتح به على نفسه أبواب الجحيم . ترى لو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أخذ كلام الحنفاء وجعله قرآناً ، قلم سكنت منهم من ظلوا أحياء إلى ما بعد بعثته كورقة بن نوفل ، الذي سارع إلى الإيمان به وأعلن أنه لو امتدَّ به الأجل إلى اليوم الذي يُقدم القرشيون فيه على إيذائه وإخراجه من مكة فليسوف يقف إلى جانبه

(١) انظر الكلمة التمهيدية التي قدم بها شراح الكتاب المقدس لأسفار الأنبياء في الترجمة الكاثوليكية / ٣٣٧ .

وينصره نصرًا مؤزراً ، وكأمية بن أبي الصلت ، الذي كان عازماً على الدخول في دعوته والانضواء تحت رايته لولا أن وقعت غزوة بدر ، وسقط بعض أقاربه قتلى بسيف المسلمين ؟ ترى لم سكتوا فلم يقولوا: إن محمدا إنما تعلم منا واستوحى قرآنه من كلامنا ؟ ولم سكت كذلك أولاد من مات منهم قبل البعثة وأقاربهم كما هو الأمر في حالة زيد بن عمرو بن نفيل ، الذي كان ابنه سعيد من أوائل من لبوا دعوة الرسول ثم تبعه ابن عمه وصهره عمر بن الخطاب ؟

ولقد توفرت لأمية كل الدواعي لقصص محمد لو كان الرسول عليه السلام قد استمد قرآنه منه ومن أمثاله ، فقد روى هلكى قريش في غزوة بدر بقصيدة حاثية بلغت الغاية في التفجع عليهم والتحريض على الإسلام والمسلمين . وهذه القصيدة موجودة في ديوانه وفي كتب السيرة والتاريخ والأدب ، ومع ذلك تفرّوها من أولها إلى آخرها فلا تجد فيها كلمة واحدة تتهم محمدا بشيء . كذلك كان هناك أبو عامر الراهب ، الذي كان الغلّ يلتهم قلبه والذي كان يتصل بالبيزنطيين في الشام يستعين بهم على حربه صلى الله عليه وسلم وكان له بين سكان المدينة عيون وأنصار ، ومع ذلك كله لم يحدث أن فتح فمه بكلمة تتهمه عليه السلام بالأخذ من الحنفاء حتى ولا لابنه حنظلة ، الذي تمرد عليه وانحاز إلى الرسول عليه الصلاة والسلام

واستشهد في معركة أحد حيث بلغ تحريض أبيه وتأمره على النبي
والمسلمين المدى الأبعد .

ويزعم الأحق الكذاب أن القرآن في قوله تعالى في الآية ١٠٣
من « النحل » : « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر . لسان الذي
يُلْحِدُونَ إليه أَعْجَمِي » ، وهذا لسان عربي مبين » قد شهد أن المقصود
بالذي أُملي القصص الفارسية على محمد هو سلمان الفارسي (ص
١٩١) . لكن الآية ، كما هو جلي لكل من لم تعم عيناه وبصيرته
كصاحبنا الغبي الذي طمس الله على فؤاده ومدّ على بصره غشاوة ،
ليس فيها أية إشارة إلى سلمان أو أي قصص فارسي . هذه واحدة ، أما
الثانية فإن الآية مكية ، وسلمان لم يظهر في الأفق الإسلامي إلا في
المدينة بعد الهجرة بفترة ، فكيف يمكن أن تتكلم الآية الكريمة عن
شخص لم يكن له حتى ذلك الحين ولا إلى ما بعد ذلك بأعوام وجود
في حياة النبي عليه السلام ؟ أراي القارئ كيف فقد أعداء الإسلام
العقل والحياء على هذا النحو الشائن المخزي ؟ ونأني إلى الثالثة ، والثالثة
ثابتة كما يقولون : فالمعروف أن سلمان هو الذي سمي إلى النبي صلى
الله عليه وسلم في رحلة طويلة مرهقة طوّف فيها بعدد من بلدان
الشرق الأوسط حتى وصل إلى يثرب حيث بيع ، وهو الشرف
الفارسي ، بيع العبيد ، وانتهى أمره بالدخول في الإسلام وملازمة النبي

عليه السلام والمثابرة على خدمته وخدمة دعوته بكل سبيل . وكانت قصص الأنبياء والأمم السابقة وآدم وإبليس وغير ذلك قد أصبحت تملأ القرآن، فلم تعد هناك حاجة إلى ما فى جعبة سلمان، أو كما قال أحدهم ذات مرة فى سخافة حقيرة : «إلى الكنز المعرفى الثمين» الذى كان فى حوزة سلمان والذى يدعى ذلك الأفاك ما ادعى أفاكنا الحالى أن الرسول عليه السلام كان يستمد منه .

أما الشعر الذى أَفَكَ هذا الكذاب بأن القرآن قد أخذ منه بعض العبارات فهو الأبيات التالية التى تنسب لأمير القيس :

دنت الساعة ، وانشق القمر	عن غزالٍ صَادَ قلبى ونَفَرَ
مر يوم العيد بى فى زينة	فرمانى فتعاطى فعَقَرَ
بسهم من لحاظٍ فاتك	فر عني كهشيم المختَظَر
وإذا ما غاب عني ساعة	كانت الساعة أدمى وأمر
كُتِبَ الحسن على وجهه	بسحق المسك مطرا مختصر
عادة الأعمار تسرى فى الدجى	فرأيت الليل يسرى بالقمر
بالضحى والليل من طرّقه	فرقه ذا النور: كم شئ زهر
قلتُ إذ شق العذارُ خَدّه :	دنت الساعة ، وانشق القمر

(١٨٥-١٨٦) . والعبارات التى زعم الكذاب أن القرآن قد أخذها من هذا الشعر هى العبارات التى تحتها خط . ووالله إنى لأستعجب من كل هذا الغباء الذى سؤل للأحمق أن يقول هذا الذى قاله . تَعَسَّ لك يا عبد الفاضى وليوم ولدتك فيه أمك ! إنما ولدتك للشقاء ، فيا ويلك ثم يا ويلك ! أهذا شعر يقوله امرؤ القيس ؟ إن الأبعد لا يشم ، لأنه لو كان يشم نَغَلَقَ فمه المتن فلم ينبس بيت شقة فى هذا الموضوع . إن الركافة تُسرِّل الأبيات من بدايتها إلى خاتمتها ، ولم يكن الشعر الجاهلى يوماً (فضلاً عن أن يكون هذا الشعر لامرئ القيس) ركيكا بهذا الشكر المزرى . ثم إن القصيدة تتغزل فى غلام ، ومتى كان الجاهليون يتعزلون فى الغلمان ؟ إن هذه الظاهرة لم تنشأ إلا فى العصر العباسى يا أيها الغنى الأبله !

ثم هل يمكن أن يقول أى شاعر جاهلى : « دنت الساعة ، وانشق القمر » ؟ والجواب : « كلا ، بالثلث » ، فالجاهليون لم يكونوا يستخدمون كلمة « الساعة » للدلالة على يوم القيامة . بل إن يوم القيامة لم يكن جزءاً من عقائدهم ، اللهم إلا نفرًا ضئيلاً منهم هم الحنفاء ، الذين كانوا مع ذلك لا يؤمنون أكثر من مجرد إيمان عام بأن هناك عالماً آخر ، أما دنو هذا اليوم فلم يكن يجرى لهم فى بال . ثم أين امرؤ القيس رغم ذلك كله من الحنفاء ؟ كذلك ففكرة « انشقاق القمر » هى من

الأفكار التى يستحيل تطويرها فى عقل أى شاعر جاهلى سواء كان المراد أن القمر قد انشق فعلا كما تقول بعض الروايات الخاصة بأسباب نزول الآية الأولى من سورة «القمر» أو كان المراد مجرد الإشارة إلى أن القمر سينشق مستقبلا مع قيام الساعة على عادة القرآن فى استعمال الفعل الماضى فى كثير من الأحيان للدلالة على أحداث القيامة والعالم الآخر. ذلك أنه على المعنى الأول يكون «انشقاق القمر» معجزة من المعجزات ، والجاهليون لم يكونوا يؤمنون بالمعجزات ، أما على المعنى الثانى فحتى الطائفة الضئيلة التى كانت تعتقد ، كما قلنا ، اعتقادا عاما فى العالم الآخر لم يكن فى ذهنها أن انشقاق القمر هو من مقدمات القيامة ، فما بالتا بامرئ القيس ؟

ولقد نَقَبْتُ ذات يوم فى أشعار الجاهلية للبحث عن كلمة «العيد» فلم أجد إلا شاهدين اثنين لا غير ، أما عبارة «يوم العيد» بأكملها فلا وجود لها فى ذلك الشعر . ثم هل يقول الجاهليون فى أشعارهم ما جاء فى البيت الأول مما لا يستطيع الإنسان أن يعقل له معنى من أن القمر قد انشق عن غزال صاد قلب الشاعر ونفر ، أو ما جاء فى البيت الرابع من أن ذلك الغلام قد فرَّ عن الشاعر كهشيم المحتظر ؟ أم هل كان من الممكن أن يتصوروا كتابة منقوشة على وجنة إنسان ؟ إن هذا من مظاهر الترف الحضارى الذى لم يكن ليخطر لهم على بال ! أم هل

كانت قصائدهم تعرف ألفاظا وعبارات مثل «الطَّرة» و«عادة الأعمار» و«حِرتُ» فى أوصافه، أو الركاقات التى تجعل الشاعر يكرر كلمة «أحور» فى البيت الثانى مرتين، أو جملة «دنت الساعة واتشق القمر» فى أول القصيدة وآخرها دون أدنى مسوِّغ إلا الهلر والإسهال اللفظى؟ أم هل جمع أى شاعر جاهلى كلمة «قمر» كما فى البيت السابع من القصيدة التافهة التى بين أيدينا؟ أم هل يمكن أن يخضع أى شاعر جاهلى لضرورة القافية بحيث يقول : «سطرا مختصر» بدل «سطرا مختصرا» ، أو أن يخطئ فيقول : «لحاظ فائلك» بدلا من «لحاظ فائكة» ؟

وأخيرا لقد كنت أستطيع أن أريح نفسى منذ البداية فأقول إن هذه القصيدة لا وجود لها فى ديوان امرئ القيس ولا فى ديوان أى شاعر جاهلى، لكننى أردت أن أبين أن أى إنسان عنده مزجة الشم يستطيع على مسافة أميال أن يعرف أنها ليست لامرئ القيس ولا لأى شاعر جاهلى أو إسلامى أو أموى أو حى عباسى رغم أن التغزل بالفلمان قد بدأ فى أيام العباسيين كما سلف القول ، إذ إن طابع عصور الانحطاط فى تاريخ الأدب العربى واضح فيها أشد الوضوح. ونفس الشئ نقوله فى البيتين الآخرين اللذين نسبهما صُوِّحِنَا الجاهل أيضا لامرئ القيس (ص ١٨٦) ، وهما :

أَقْبَلَ وَالْعِشَاقَ مِنْ خَلْفِهِ كَأَنَّهُمْ مِنْ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ

وَجَاءَ يَوْمَ الْعِيدِ فِي زِينَةٍ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ

وَبَقِيَ كُتُبَ جَهْلَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى : قَامَا النَّصَارَى فَلَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَعْلَمُ شَيْئًا مِنْهُمْ لَا تَبْرَى لَهُ أَحَدٌ مِنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي مَكَّةَ أَيَّامِ اضْطِهَادِ قَوْمِهِ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مِمَّا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْرَى بِتَقْوَلِ الْأَقَاوِيلِ عَلَيْهِ ، قَائِلًا : «أَنَا الَّذِي أَخَذْتَ مِنِّي يَا مُحَمَّدُ كَلَامِي وَزَعَمْتَ أَنَّهُ قُرْآنٌ يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ! » . وَلَقَدْ ظَهَرَ النَّصَارَى مَرَّةً أُخْرَى فِي حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمَدِينَةِ حِينَ زَارَهُ وَفَدَ تَصَارَى بَجْرَانٍ ، وَفِيهِمْ سَادَتُهُمْ وَعِلْمَاؤُهُمْ ، فَدَعَاهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْمِبَاهِلَةِ ، وَهِيَ قِمَّةُ التَّحْدِي ، فَلَمَّا ذَا لَمْ يَقُولُوهَا ؟ وَلَمَّا ذَا لَمْ يَقُلْهَا بِحِيرَا ، الَّذِي يَطْنُطُنُ الْمُسْتَشْرِقُونَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَلَّمَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ أَمَّا الْيَهُودُ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَتْرَكُوا أَى شَيْءٍ يَرَوْنَ أَنَّهُ يُفْسِدُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ إِلَّا وَفَعَلُوهُ ، حَتَّى لَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى قَرِيْشٍ وَزَعَمُوا أَنَّ أَصْنَامَهُمْ وَوَثَنِيَّتَهُمْ وَانْحِرَافَاتِهِمْ الْأَخْلَاقِيَّةَ خَيْرٌ مِنْ تَوْحِيدِ مُحَمَّدٍ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، كَمَا تَأَمَّرُوا عَلَى قَتْلِهِ وَطَعْنِ دِينِهِ فِي ظَهْرِهِ وَوَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَيْدِي الْأَحْزَابِ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ ... إلخ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ نَرَاهُمْ لَمْ يَنْبَسُوا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَنْ أَخْذِ الْمَرْعُومِ مِنْ كُتُبِهِمْ . وَمَعْرُوفٌ أَنَّ الْيَهُودَ يَتَحَمَتُونَ بِوَقَاحَةِ فَائِزَةٍ وَلَا يَمَالُونَ أَنْ يَفْتَرُوا الْكَذِبَ عَلَى أَشْرَفِ الشَّرَفَاءِ ، يَبْدَأُ أَنْهُمْ خَرَسُوا

تعاما فى هذه المسألة ، فعلام يدل هذا ؟ وكيف تواتيك نفسك أيها
المتنطح الكذوب بعد أربعة عشر قرنا من الزمان على توجيه مثل هذا
الاتهام ؟ إن الحياء هو خلق الكرام ، وأنتم قوم لا تستحون ، تعاما مثل
المومس التى يعرف الناس جميعا عهرها وفضائحها ، ومع ذلك فإنها
لا تشعر بذرة من خجل بل تقف فى الشارع وتصيح بملء صوتها
العاهر أنها أشرف من كل نساء الدنيا وأنها وأنهن ! أهذا غاية ما
عندكم مما تتهمون به سيد الخلق ؟ أكل هذا من أجل أن دينه قد
أنكر التثليث ووراثه الخطيئة وأبوة الله لواحد من عبادة وشرب الخمر
وأكل الخنزير وترك الختان ؟ لقد ظلت حربكم هذه العوان مشنونة
عليه وعلى دينه طوال القرون الأربعة عشر الخالية ، ولكنها لم تؤد بكم
إلى شىء ! وإنكم لتظنون أن الهوان الذى أصاب المسلمين فى هذه
الأيام النحسات هو فرصتكم الذهبية للقضاء على دين سيد الخلق ،
وأنتم فى ذلك واهمون وهم النائم الذى لم يتفط جيدا فبان سواه
وهو يحلم الأحلام ويظنها حقائق ! إنكم لتناطحون جبلا أسمم ، ولقد
فقد عقله من تسول له نفسه أنه يستطيع تدمير الجبال بقرنى صرصور !

وتحت عنوان «الوحى الذى يشك فيه مبلغه» يسوق الشقى اللعين
قوله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام فى بدايات الوحى : «فإن كنت

فى شكّ مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين ، (يونس / ٩٤) دليلا على أنه صلى الله عليه وسلم كان يشكّ فى نبوته ، فكيف يتوقع إذن من سامعيه أن يصدّقوه ؟ ثم يستشهد بقول بولس إلى أهل غلاطية (٨/١) : « إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن أناليمّا (أى واقعا تحت لعنة) » على أن هناك فرقا بين محمد ، الذى يشكّ فى الروحى الذى ينزل عليه ، وبين بولس الوائق فيما كان يشرّ به حسب كلامه (ص ٨٢ - ٨٣) .

ومقطع الحق أنه ليس فى الآية الكريمة ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يشكّ آتخذ فى الوحى ، فإنّ حرف الشرط «إن» يدل على استحالة الفعل أو استبعاد حدوثه على أقل تقدير ، وإنما هو ضرب من تثبيت القلب ، إذ كان قومه يكذبونه ويفترون عليه الاتهامات ، فبيّن القرآن له أنه على الحق فلا ينبغي أن يبالى بافتراءات المفترين ، وإذا كان قومه يكذبونه ويرفضون دعوته فما هم أولاء الذين يقرأون الكتب من قبله ، فليسألهم إن أحبّ ، ولسوف يجيبونه بأن نبوته معروفة عندهم وأن الناموس الذى ينزل عليه هو نفسه الناموس الذى كان ينزل على إخوانه الأنبياء من قبل . إنه نفس الجواب الذى

سمعه قبلا من ورقة بن نوفل . ومع ذلك فإنه عليه السلام لم يشك ولم يسأل ، وقد وردت الروايات بذلك ، إذ كان جوابه عندما نزلت عليه تلك الآية . «أنا لا أشك ولا أسأل» . وحتى لو كان عليه السلام قد توقف أمام هذا الحدث العجيب الذى حوّل حياته وحياة البشرية ومسيرتها الحضارية تحويلا ، فماذا فى هذا ؟ إنه يدل على أنه لم يخترع الوحي كما يفترى عليه أعداء الإسلام ، إذ المخترع لا يشك ولا يتوقف ، فضلا عن أن يعلن هذا على الملأ ، وإنما كان يبنى اليقين المطلق ، وهذه قمة الموضوعية . وعلى أية حال فإن حرف الشرط «إن» الموجود فى أول الآية الكريمة موجود أيضا فى أول عبارة بولس : «إن بشرناكم ... إلخ» ، فهل يقول المتطعم الجهول إن بولس يعترف بأن من الممكن أن يبشر أهل غلاطية بغير ما كان يبشرهم فعلا به ؟ ولقد خاطب الله رسوله قائلا : «قل : إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» ^(١) ، ومستحيل فى الإسلام وفى منطق العقل أن يكون لله ولد . ألا يرى العبد الفاضى أنه كالحمار يحمل أسفارا ؟

وإنى لأستغرب كيف لم يفكر النبى مثلا فى صبيحة عيسى عليه السلام على الصليب حسب مزاعم العهد الجديد : «إلهى ، إلهى ، لماذا تركتني ؟» ، إذ ليس لها من معنى إلا أنه لما جدّ الجدّ نسي كل ما

(١) الزعفر / ٨١ .

اتفق عليه مع أيه (أو بالأحرى : مع إلهه طبقا لكلامه هو) من أنه
سُيَصَلَّب تكفيراً عن خطايا البشرية ، فأخذ يركب ويصيح عبثاً دون
جدوى ! فذلك هو الذى ينبغي أن يشغل ذلك المنتطح به نفسه لا
بتفحص تفسير القرآن برعونة وجهل ! هذا ، ولا أريد أن أشير إلى اجترأ
إبليس على المسيح (وهو الله عندهم) وأخذه إياه إلى قمة الجبل كي
يختبر إيمانه ، ولا إلى تعميد يحيى عليه السلام له ، أى تعميد
العبد للرب ... إلخ ، وهو كثير !

ويستمر التعيس فى تخطاته فيقول إن قوله عز شأنه فى الآية ٢٣
من «المائدة» عن يهود المدينة : «وكيف يحكمونك ، وعندهم التوراة
فيها حكم الله ؟» ، وقوله جلّ وعلا عن النصارى فى الآية ٤٧ من
نفس السورة : «وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم
يحكم بما أنزل الله فأولئك هم القاسقون» ، دليل على أن التوراة
والإنجيل اللذين كانا فى أيدي اليهود والنصارى صحيحان (ص ٨٣)
وهو فهم غبى ، وإنما يريد القرآن أن يوضح لليهود تفاقهم وتخطيهم
حيث يرفضون نبوة محمد ، وفى ذات الوقت يأتون إليه طالبين منه أن
يصدر حكمه على زانين منهما ، فقال لهم : إن فى كتابكم العقوبة
الخاصة بالزنا ، فلماذا تتجاهلونها وتظنون أن رسول الله سوف يحكم

عليهما بحكم آخر أخف ؟ ولقد عبث اليهود فعلا يتوراتهم ، إلا أن هناك مواضع وأحكاما فيها لم تمسسها يد العبث ، ومنها رجم الزناة . فهل إذا قال القرآن الكريم إن حكم الزنى الموجود فى العهد العتيق هو حكم صحيح كان معناه أن كل ما فى ذلك الكتاب صحيح ؟ أما قوله عز وجل : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » فهو يتحدث عما أنزله الله على عيسى لا ما أضافته أو حرقته يد الإفساد . ولقد كان مما أنزله الله على عيسى التبشيرُ بنبوة محمد ، وهو مما أمر الله أهل الإنجيل أن يحكموا به فیدخلوا فى دين محمد ويعتقوا التوحيد بدل التثليث ويعفوا عن لحم الخنزير وما إلى ذلك مما أدخله بولس وأمثاله فى ديانة عيسى ، وهى منه براء ، فهذا هو معنى الآية ، لكن القلوب الغُلف لا تفهم ! وبالله التوفيق !

الفهرست

- ۵ _____ في البدء كانت هذه الكلمة ا
- ۱۱ _____ الشبهات اللغوية
- ۹۹ _____ شبهات خاصة بالمضمون